الفكر الجيوبوليتيكي

عند جمال حمدان

تأليف

دكتور / محمد عبد السلام

الفكر الجيوبوليتيكي

عند جمال حمدان

تأليف دكتور

محمد عبد السلام

إهداء

إلى طاقة نور

وعبقرية خالدة

إلى غاندي مصر .. ومانديلا أفريقيا ... وجيفارا أمريكا

إلى روح جمال حمدان

بسم الله الرحمن الرحيم

" يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا

العلم درجات والله بما تعملون خبير"

(المجادلة ١١)

الفهرس

الموضوع الصفحة

أولا: **جمال حمدان وعبقرية الانسان** ٦- ١٨

الميلاد والنشأة ٦-١١

مؤلفاته ١١-١٢

سماته ومعاناته ١٢-١٣

مأساته ١٣- ١٦

مرتكزاته الفكرية ١٦- ١٨

ثانيا: **تقويم لبعض الافكار الجيوبوليتيكية عند جمال حمدان**....١٩-٢٧

ثالثا: **جيوبوليتيكية الحروب الصليبية دراسة لرؤية جمال حمدان الاستراتيجية** ٢٨-٤٣

رابعا: **جيوبوليتيكية بناء الانسان المصري في فكر جمال حمدان**.. ٤٤-١٠٩

خامسا: **جيوبوليتيكية الصراع العربي الاسرائيلي في فكر جمال حمدان** ١١٠- ١٣٢

المراجع ١٣٣

جمال حمدان وعبقرية الانسان

الميلاد والنشأة

جمال محمود صالح حمدان.. ولد في ٤ فبراير ١٩٢٨ في قرية ناي محافظة القليوبية.. وتوفي في القاهرة في ١٧ إبريل عام ١٩٩٣ والده خريج الأزهر التحق بمدرسة القضاء الشرعي التي كانت تخرج القضاة الشرعيين، وعمل في القضاء، ثم تم فصله عقابًا له على خروجه في مظاهرات ثورة ١٩١٩؛ لذلك اضطر والده لدخول مدرسة المعلمين، وتخرج منها مدرسًا للغة العربية، وعمل بالتدريس، وظل والده ينتقل من مدرسة إلى أخرى إلى أن استقر بمدارس الملك فاروق بحي روض الفرج؛ ولذلك سكنت الأسرة واستقرت في حي شبرا بجوار جامع الخازندار، ولذلك التحق جمال حمدان بمدرسة شبرا الابتدائية بنين، وحصل على الابتدائية عام ١٩٣٩، ثم التحق بمدرسة التوفيقية الثانوية، وفي هذه المدرسة وتحديدًا في السنة الأخيرة التقى جمال حمدان بأستاذه الجليل محمود جمال الدين أستاذ الجغرافيا وبسببه عشق جمال حمدان الجغرافيا، وتمسك بها طول العمر، وكان حمدان يصاحب أستاذه حتى باب داره، ولا ينقطع حديثه عن الجغرافيا مع أستاذه.

وكان سكن الأستاذ قريبًا من منزل حمدان، وحصل جمال حمدان على شهادة التوجيهية (الثانوية الآن) عام ١٩٤٤، وكان ترتيبه السادس على مستوى مصر كلها، وخرج حمدان من هذه الفترة

بمجموعة من الأصدقاء، منهم رفعت المحجوب، وصبحي عبدالحكيم، وعبدالعزيز الشربيني.

ودرس حمدان بكلية آداب القاهرة الجغرافيا، وكان متفوقًا طوال أعوام الدراسة؛ ولذلك تنبأ له أستاذه دكتور/ عباس عمار بأنه سيكون من علماء الجغرافيا الكبار، وأن حمدان سيغير وجه الجغرافيا في مصر كلها، وكذلك تنبأ له بالتفوق أستاذه سليمان حزين وغيره من الأساتذة.

وحصل حمدان علي ليسانس الجغرافيا بامتياز، وعين معيدًا بالكلية عام ١٩٤٨ وكان عمره عشرين عامًا، وفي عام ١٩٤٩ سافر حمدان في بعثة علمية إلى جامعة ريدنج في إنجلترا، وحصل على الدكتوراه عام ١٩٥٣ مع مرتبة الشرف الأولى، وتمسكه بالعودة إلى مصر أدى لفشل قصة حب مع زميلته الإنجليزية في الجامعة، ورفض كل منهما ترك بلده؛ ولذلك فشل مشروع الزواج.

وعندما عاد جمال حمدان لمصر وجدها تغيرت كثيرًا بعد ثورة ١٩٥٢، ثم انتقل جمال إلى شقة صغيرة بحي الدقي عام ١٩٥٧؛ ليكون قريبًا من جامعة القاهرة مقر عمله، وبرغم تفاؤل حمدان بثورة يوليو؛ فإنه ما لبث أن عانى كثيرًا في هذه الفترة، خاصة عندما رفض ما عرضه عليه المسئولون آنذاك؛ ليكون مستشارًا للمؤتمر الإسلامي الذي تأسس في الخمسينيات، وانتقاده بعض السياسات؛ خاصة فيما يتعلق بالديمقراطية والاعتماد على أهل الثقة، وليس الخبرة.

ولذلك بدأ الكل يتربص بحمدان؛ خاصة في عمله؛ حيث تم حرمانه من تدريس مادته المفضلة وهي جغرافيا المدن، وتكليفه بمادة الخرائط للسنة الأولى، وكان عادة ما يقوم بتدريسها المعيدون، وعانى من

كثير من المضايقات في العمل، ثم انتدب للعمل بجامعة القاهرة فرع الخرطوم، وفوجئ هناك بزميل له يدرس كتبه ومؤلفاته ومحاضراته على أنها من تأليف الزميل المزيف، وعند التقدم للحصول على ترقية أستاذ كرسي فوجئ بأن هذا الزميل حصل على الترقية بدون وجه حق، وحرم منها جمال حمدان.

وهنا قرر حمدان أن ينسحب، وقدم استقالته للجامعة قائلاً: "سيعرف الجميع غدًا من هو الأستاذ"، حتى هذه الاستقالة علقت لمدة عامين؛ مما أعاقه من الحصول على حقوقه المادية.

وأصيب بحالة من الكآبة والمرارة؛ نتيجة للظلم الشديد الذي تعرض له في بلاده وجامعته، وبعد فترة من العزلة والمرض قرر اعتزال العالم، والتفرغ للعلم رافضًا كل العروض؛ سواء بالتدريس في الخارج، أو الكتابة لـ"جريدة الأهرام"، حيث كان الأستاذ "هيكل" رئيس تحرير "الأهرام" وطلب منه أن يكتب ضمن أسرة "الأهرام".

ومن هنا بدأت مرحلة جديدة من الكفاح والتحدي والإبداع، ثم كانت وفاته الغامضة عام ١٩٩٣؛ بسبب حريق نشب بشقته في ظروف غامضة، خاصة مع اختفاء البروفة الأخيرة لآخر ما كتب عن اليهود، وهي وفاة تثير العديد من التساؤلات، وكان كتابه الأخير بعنوان "العالم الإسلامي في الاستراتيجية العالمية".

ويتربَّع المفكر المصريُّ الراحل جمال حمدان (١٩٢٨- ١٩٩٣م) على عرش قلَّة من المفكرين المصريين الذين اتسموا بعمق التحليل، وشجاعة الطرح، وعبقرية المزج ما بين الجغرافيا "العلم الحائر" وفق تعبيره- ومختلف فروع المعرفة الإنسانية: تاريخاً وفلسفة، سياسة وثقافة، ديناً واجتماعاً. وتبدو عبقرية المزج هذه، أسمى ما

تكون، في فكرته الجوهرية "عبقرية المكان" التي تعد بمثابة ركيزة أساسية لمشروعه الفكريِّ العملاق. فقد كان حمدان مهموماً بتخصُّصه الأكاديميِّ ما دفعه لأن ينتقل به من حيِّز الدراسات التقليدية إلى حيز "الجغرافيا السياسية"، أو "الجغرافيا المقارنة" على وجه الخصوص. ومن هنا كان تساؤله الدائم حول الكيفية التي ينهضُ بها "الجغرافيُّ" من رقدته بعد أن ركع وخضع تحت وطأة وثقل أعبائه الخاصة؟! وفي سياق محاولته الاجابة على هذا السؤال نتلمَّح بروز عناصر الفكرة الرئيسة لفلسفته الجغرافية، إذا جاز التعبير، أو ما أطلق عليه مسمى "فلسفة المكان".

يقول حمدان: "لا بد أن يخوض الجغرافيُّ (في) الإلمام بكل التكنيك العلميِّ الجديد؛ يأخذ عنه فكرة واضحة؛ لا ليتحوَّل إلى متخصِّصٍ فيه، بل مجرّد مُتلصِّصٍ عليه! ولأنَّ الجغرافيا (هي) فلسفةُ المكان، فلسفةُ الأرض، فلسفةُ العالَم (برُمَّتِه)، فإنَّنا ندعو إلى (بلُوغ) الحدِّ الأقصى من العلم والعلمية في الجغرافيا؛ لتواكِبَ عصر العلم والتكنولوجيا الفائقة. وفي الوقت ذاته إلى قلب الجغرافيا وموطِنها النهائيِّ، وهو فلسفة المكان؛ أي بلوغ الحد الأقصى من (المعرفة) العلمية، مع الحد الأقصى من (المعرفة) الفلسفية، وتحقيق ومواءَمة هذه الثنائية هي جوهر "فن" الجغرافيا.

الجغرافيا – بهذا المعنى إذن- هي التي تقدِّم صورةً كاملةً عن العالَم للمتعلِّم والمثقَّف أكثر مما يدعوه حمدان بـ "الميكانيزم" الذي هو ألصق بالعلوم الأوليَّة؛ كالنبات والحيوان والجيولوجيا... إلخ. وعلى رغم إقراره أنَّ الجغرافيا قد لا تتربع على قمَّة العلوم؛ فإنَّ ذلك لم يمنعه من التأكيد على أنها تتربع على قمَّة الثقافة! بل إنها: "أعلى مراحل الثقافة، وهي علمُ الثقافة الأساسيِّ"، ومن دونها لا يكتسبُ

الإنسان صفة المثَقف "مهما حاز من معارف"، وبها أنتَ مثقف مهما قصَّرْتَ.

والواقع أنَّ نظرته هذه - التي قد تبدو غارقةً في التطرُّف للوهلة الأولى- سُرعان ما تتكشَّفُ عن معانٍ ودلالاتٍ كبرى، مثلما تكشِّفُ عن جملة من الأسباب المُقنعة والدَّافعة إلى الأخذ بهذا القول. فالجغرافيا في مفهوم حمدان لا تقتصرُ على "علم تضاريس الأرض" فحسب؛ وإنما يُقْصَدُ بها الـGeo-Histoire ، أو "الجغراسيا"! إنها بمعنى آخر: كلُّ ما تراه العين خارج البيت أو الجدرانOut of Doors ؛ في الطبيعة أو في البيئة أو في الشارع. فكل إنسان – جغرافيّاً كان أم غير جغرافيٍّ- يرى الجغرافيا حيثما كان وأينما تحرَّك، بل إنه يتحرَّكُ "فيها"، فلا مهرب له منها البتة.

كما لا ينظر حمدان للجغرافيا بوصفها علما وضعيا يعتمد على دراسة الموقع والتضاريس فحسب؛ وإنما تشمل بالضرورة دراسة أوجه الحياة بكل دقائقها، ومن ثَّم النفاذ إلى "روح المكان" لاستشفاف عبقريته الذاتية. ومن هنا كان رؤيته للعلاقة بين الإنسان والطبيعة في المكان والزمان رؤية متوازنة، بحيث لا ينحاز إلى طرف على حساب الطرف الآخر.

ومن هنا أيضا كان فهمه للجغرافيا بوصفها "فن الجمال"؛ بحيث تُصبح الخريطة بمثابة الشفرة ولغة الجغرافية الأساسية، وهي لغة عالمية غير مكتوبة وإنما مرسومة والأطلس قاموسها. مما يدفعنا للتساؤل عمَّا إذا كنَّا إزاء أديبٍ ضلَّ طريقه إلى الجغرافيا؟ أم إزاء جغرافيٍّ ضلَّ طريقه إلى عالم الأدب؟! تساؤل كهذا يفرض نفسه ونحن نتعمَّق ضمن تضاعيف رؤية حمدان الجمالية لفن الجغرافيا، وأسلوبه المتدفِّق في التعبير عن درجة عشقه لعبقرية وروح المكان.

إنَّ قانون الجغرافيا الذي يعلو كلَّ حقيقة - وفق حمدان- إنما يتمثَّل في كونها عبارة عن "الجغْرَفة"؛ أي عملية تحويل ما ليس جغرافيا إلى ما هو جغرافيّ! وهو ما يُطلق عليه في مواضع أخرى "التكثيف الاستراتيجيِّ": فالجغرافيا التاريخية "تكثيفٌ استراتيجيٌّ" للتاريخ، والجغرافيا السياسية "تكثيفٌ استراتيجيٌّ" للسياسة، والجغرافيا الاجتماعية "تكثيفٌ استراتيجيٌّ" لعلم الاجتماع... وهكذا.

ويعبر البعض عن حياة " جمال حمدان " (١٩٢٨–١٩٩٣م) بأنه عاش في صمت ورحل عن الدنيا في صمت، وبين صمت وصمت ملأ الدنيا وشغل الناس.

مؤلفاته:

لجمال حمدان العديد من المؤلفات أكثر من عشرين مؤلف منها: بترول العرب، استراتيجية الاستعمار والتحرير، المدينة العربية، جغرافيا المدن، سكان وسط الدلتا قديما وحديثا، اليهود انثروبولوجيا، العالم الإسلامي المعاصر، سيناء ... ومن أهم كتبه: شخصية مصر التي جاءت في أربعة أجزاء، صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٦٧م، وصدرت الطبعة الثانية عام ١٩٧٠م، وصدرت الطبعة الأخيرة عام ١٩٨٠- ١٩٨٤م. ومؤلف شخصية مصر عبر عنها البعض أنها ملحمة شجية في حب مصر، فوسط أجواء الركاكة التي رانت على حياتنا في العهد الأخير يبزغ هذا الكتاب شهابا، لكنه لا يحترق، يظل مضيئا بعد انقضاء الكتاب وقضاء الكاتب.

ويرى البعض الآخر أن كتاب شخصية مصر لم يكن كتابا عن جغرافية مصر، وإنما ملحمة عن شخصية مصر خاصة، والشخصية العربية عامة، وأن هذا الكتاب جاء لا لمحاولة تحديد العالم الأصيل

لهذه الشخصية تحديدا علميا فحسب، وإنما لتأكيدها وحمايتها والدفاع عنها وذلك في مواجهة محاولات التمييع والطمس والامتهان والاغتراب ... فهو مشروع حضاري يعد امتدادا متطورا خلاقا لمشروع عصر النهضة، مؤصل تأصيلا علميا عميقا.

هذا بالإضافة إلى العديد من المقالات والأبحاث الجغرافية المنشورة في المجلات العلمية المحلية والدولية، وقد اشترك في ندوات البحث العلمي لليونسكو والجامعة الأمريكية وندوات التدريب المدرسي وزارة التربية والتعليم.

سماته ومعاناته:

كان "جمال حمدان" جادا طموحا من أصحاب المشاعر المتطرفة، لا يعرف الوسط ويكره اللون الرمادي، وهو إما أن يحب بعنف أو يكره بالعنف نفسه، كان شخصية شديدة التوتر، يعيش الحياة كالقوس المشدود. كانت صداقاته محدودة، وغير مرتبطة بمصالح شخصية أو قائمة على منفعة ذاتية، كانت له رؤيته الواحدة الخاصة، وكذا كان له طريقه الخاص به، كان يكره أن يطلع أحد على حياته، ويعتبر كل حياته حلوة - إذا كان - ومره شيء خاص به وحده.

كان في الجامعة أستاذا بارعا في تخصصه، حيث حول الجغرافيا من حقائق أفكار، وصعد بها إلى أعلى مراحلها... شخصية المكان، وهي جماع ما يدل عليه المكان، وصاغ الأفكار بأسلوب راق ومتميز، يصعب معه أن تحذف كلمة من عبارة، ولا عبارة من سياق.

كان مقربا إلى نفس تلامذته، وكان يسعد بلقائهم، جعلهم يجتازون الصعب، ويقبلون على دراسة الجغرافيا بحب وشغف، وكان أول من

اهتم بالجغرافيا السياسية. ولكنه استقال من الجامعة في ظروف غامضة أثر محنة صنعتها نفوس زاملته في الجامعة.

تجرد "جمال حمدان" من متاع الدنيا جميعه، لا زوج ولا ولد، ولا عمل ثابت، دخل هزيل من المعاش ومن بعض كتبه ومقالاته. كانت حياته متواضعة للغاية. كان يسيرا عليه بعد أن ترك الجامعة أن يبحث عن نفسه خارج الجامعة ، بل خارج الوطن، وسنحت له الفرصة أكثر من مرة للسفر إلى بعض الجامعات العربية، ولكنه رفض في الوقت الذي تمنى الكثير مثل هذه الفرص.

وكانت أصل المشكلة بين "جمال حمدان" وأحمد بهاء الدين والتي أدت إلى القطعية الدائمة بينهما. أن الصحفي أحمد بهاء الدين كان يرثي لحال "جمال حمدان"، ولا يرضى عن الحياة الكئيبة التي يعيشها "جمال حمدان" وكان يعلم بالضيق الذي يعانى منه، فدفعه الفضول ودفعته نوازعة النبيلة إلى الكتابة في الصحافة يطلب معاشا استثنائيا لجمال حمدان، حيث أن المعاش الذي تقرر له في الستينات عام ١٩٦٣م لا يتناسب مع احتياجات الإنسان في السبعينيات.. وشرح باقى ظروفه... ولكن أحمد بهاء الدين لم يستشر أو يأخذ رأي " جمال حمدان " في ذلك. ومن هناك كانت القطيعة التي حاول بعدها أحمد بهاء الدين تكرارا وبشتى الطرق أن يصالحه. ولكن شموخ وعناد حمدان حالت دون ذلك، فكان يعتبر ذلك من خصوصياته التي يجب أن تصان وتحترم.

مأساته:

مأساة "جمال حمدان" تتجسد في مرحلتين:

المرحلة الأولى: استقالته من الجامعة:

حيث كان حمدان أستاذا يحب تلامذته وكانت عملية التدريس وإلقاء المحاضرات على طلابه قضية عمره، لم تكن مجرد وظيفة أو عمل، كان يفتقده كثيرا. والذين يقولون أنه استقال من عمله بالجامعة ليتفرغ لأبحاثه لا يعرفون شيء.

إن الحصول على إجابة واضحة لأسباب استقالة "جمال حمدان" من الجامعة صعب جدا، ولا أحد يرغب في الحديث عن ذلك، وعندما تسأل عن ذلك فكأنما اقتربت من منطقة خطر ممنوع الاقتراب منها. وبالتالي تظل أسباب استقالة "جمال حمدان" من الجامعة مجرد أشياء غامضة تترك في النفس هواجس كثيرة... ولكن المؤشرات تقول أن عدم صفاء المناخ الجامعي يعتبر أهم الأسباب التي جعلته يستقيل من الجامعة.

والعجيب هو موقف الجامعة الغامض من "جمال حمدان"، فلا يحتفون به رسميا، ولا يعلنون أنه ليس عالما، كما يعتقد الكثيرون خارج الجامعة، بجانب أنه في الغالب لم يتم حتى الأن التحقيق في الأسباب التي جعلته يترك الجامعة. ترك "جمال حمدان" الجامعة فأصبح عالما، فهل من يريد أن يصبح عالما يترك الجامعة، كان يجب التحقيق في أسباب استقالة "جمال حمدان من الجامعة - خاصة أنه حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٥٦م ، ونال جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٥٨م أثناء عمله داخل الحرم الجامعي - وتلافي تلك الأسباب مستقبلا، حتى لا تتكرر مثل هذه المأساة.

المرحلة الثانية : وفاته :

حيث توفي "جمال حمدان" وحيدا بدون زوج أو ولد أو قريب أو صديق بجانبه، وكانت وفاته مثار جدل كبير حول سبب الوفاة، فالبعض يتفق أنها طبيعية، والآخر قال أن سبب الوفاة هو الانتحار، وهناك من يرى أنه قتل للأسباب الآتية:

١- أنه كان على وشك الانتهاء من ثلاثة مؤلفات وتسليمها إلى دار النشر قبل أسبوع من رحليه، فكيف ينتحر قبل أن يقوم بنشر تلك الأعمال الثلاثة ويراها بعينيه، أي أن يكون قد أدي الرسالة التي يراها له في الحياة ثم ينتحر.

٢- أنه كان يفكر في كتابة مؤلفات أخرى، وهذا يعني أنه لم يعتقد بانتهاء رسالته في الحياة، بل يريد أن يعيش من أجل استكمال كتاباته.

٣- أن من يفكر في الانتحار لا يقوم بحرق الجزء الأسفل من الجسد، حيث إن من ينتحر يستخدم وسيلة سريعة وفعالة وتكون مؤثرة على المخ الذي هو المسيطر على الجسد أو وسيلة غير مؤلمة، فهل من المنطق أن ينتحر بإشعال النار في ساقيه.

٤- إذا كان يريد الانتحار فلماذا كتب في حب مصر، إن من ينتحر، ينتحر لأنه يكره، وليس لأنه يحب، فكيف لمن أحب مصر وحول صخورها إلى أبيات شعر في غزلها أن ينتحر. .

٥- أين ذهبت المؤلفات الثلاثة التي كان على وشك الانتهاء منها، إنها كانت موجودة قبل موته واختفت ولم تظهر حتى الآن. أليس هناك علاقة بين رحيله واختفاء مؤلفاته. أليست جريمة قتل، هل تم قتله حتى لا يتم نشر مؤلفاته الثلاثة هذه، أم لمنعه من الكتابة بعد ذلك، خاصة أنه كان يخطط للكتابة عن اليهود. ومن ضمن كتاباته المنشورة (اليهود انثربولوجيا).

مات "جمال حمدان" ، ولكنه حي بمؤلفاته، وسواء كان أعداؤه أحياء أم أمواتا فهم موتى، فليس لهم مؤلفات مثل ما له، فلقد انتصر الميت لأنه حي وانهزم الحي لأنه ميت. وصدق جمال الدين الأفغاني. حيث قال "الأديب في الشرق يموت حيا ويحيا ميتا".

مرتكزاته الفكرية:

"جمال حمدان" ليس مجرد عالم، مفكر، فليسوف، مهموم بشئون وطنه المصري وأمته العربية، وإنما هو فضلا عن هذا، صاحب مشروع حضاري ومصرى وعربي متكامل شامل .. مشروع مؤصل تأصيلا علميا عميقا يحاول الإجابة عن سؤال الخصوصية القومية، سؤال الهوية المعلق، بل المجهض: من أنا؟ لماذا تخلفت وتقدم غيرى؟ وإجابته في مشروعه ليست إجابة علمية نظرية فحسب، بل هي كذلك إجابة علمية تتضمن موقفا ناقدا وإرادة واعية، تتوخى التغيير والتجديد. ولهذا قد تمتزج في كتاباته الدقة العلمية الموضوعية بالهم الاجتماعي والقومي والإنساني عامة، بل والذاتي كذلك، مما يعرض بعض كتاباته أحيانا لانتقادات منهجية، عند من لا يستبصرون في هذه الكتابات طابع المشروع الحضاري التغييري الشامل.

إن شخصية مصر لجمال حمدان لا تنتسب إلى ما يسمى بالجغرافيا التقليدية وإنما ترتفع إلى رؤية عمرانية استراتيجية شاملة تبدأ من الواقع الجغرافي الطبيعي لتمتد فتشمل مختلف القضايا الإنسانية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

وهنا ينوه "جمال حمدان" إلى أنه لا يكتب في جغرافية الحقائق، إنما في جغرافية الأفكار، وقمتها الشخصية الإقليمية، وهي هنا شخصية مصر، لا شخصية المصريين، وهذه الشخصية الأخيرة

تتداخل بشدة مع فكرة الطوابع القومية، وهي فكرة غامضة، لا تقوم على اساس علمى واضح، وهي ألصق بالأنثروبولوجيا والأنولوجيا وعلمي الاجتماع والنفس.

ويؤكد "جمال حمدان" أن شخصية مصر هي بكل المقاييس وبإجماع الآراء من أغنى الشخصيات الإقليمية وأكثرها ثراء وتعددا في الجوانب والأبعاد... وأنها دراسة عن شخصية مصر لا المصريين، عن شخصية مصر لا الشخصية المصرية، والفارق حاسم كما هو دقيق، فرغم قدر من التداخل الحكمى منطقيا ومن حيث المبدأ، ورغم فكرة الجغرافيا كجغرافية الإنسان.. ورغم تركيز الجزء الأكبر من مادة هذا الكتاب فعلا على أبناء مصر وأهل مصر وسكان مصر بالضرورة عمليا، فإن هذه أساسا دراسة الشخصية مصر البلد والإقليم لا لشخصية المصري أو الإنسان المصري من حيث هو.

ويرى "جمال حمدان" أن كل إقليم أو بلد هو يقين متفرد ونسيج وحده إلى حد أو أخسر.. غير أن واقع الأمر بعد ذلك هو أن درجة التفرد ومدى التمايز وحدة التباين هي التي تختلف. وهنا تأتي مصر بكل سهولة على القمة، أنها قمة التفرد، وتلك هي حقيقة عبقريتها الإقليمية.

وهنا يقدم حمدان النظرية العامة التي تفسر العبقرية الإقليمية لمصر، أو الشخصية الفلته، تلك النظرية توجهنا وتفيدنا في بلورة المرتكزات الفكرية له، حيث يقول: "والنظرية العامة التي تقدم في تفسير هذه الشخصية الفلته هي التفاعل ائتلافا أو اختلافا. بين بعدين أساسيين في حياتها وهما الموضع Site ، والموقع Situation. فالموضع نقصد به البيئة بخصائصها وحجمها مواردها في ذاتها، أي البيئة النهرية الفيضية بطبيعتها الخاصة وجسم الوادي بشكله

وتركيبه.. إلخ. أو كما يقول "أحمد فخرى" بحق في مصر الفرعونية" (لقد استمدت مصر شخصيتها الحقة من شخصية أرضها ونيلها). أما الموقع: فهو صفة نسبية تتحدد بالنسبة إلى توزيعات الأرض والناس والإنتاج حول إقليمنا وتضبطه العلائق المكانية التي تربطه بها. الموضع خاصية محلية داخلية ملموسة، ولكن الموقع فكرة هندسية غير منظورة.

وفي إطار هذه النظرية جدد حمدان أبعاد شخصية مصر في بعدين أساسيين هما الموضع والموقع بهذين العنصرين الجوهريين والعلاقة المتغيرة بينهما تفسر شخصية مصرنا فهما يختلفان حين نجد مثلا أن حجم الموضع كان لا يتكافأ دائما مع خطورة الموقع الحاسم على ناحية العالم، وحين نجد أن الأول ينتظم قدرا ما من عزلة، والثاني يفرض فيضا من الاحتكاك. وهما يأتلفان في الأثر حين يدعوان إلى الوحدة السياسية والمركزية العنيفة، ومن حيث أن زمامهما ليس محليا تماما وإنما يرتبط بعوامل خارجية بعيدة. وبين هذا الشد والجذب تخرج شخصية مصر الكامنة كفلتة جغرافية نادرة.

إذن لم يكن جمال حمدان - فيلسوف الجغرافيين وجغرافي الفلاسفة - أكاديميا من هؤلاء الذي حصروا أنفسهم داخل شرنقة الجامعة، التي تحد من انطلاقة المفكرين نحو التأصيل المنهجي، والإبداع الحضاري، بل إنه تمرد على حصار الأكاديمية الضيق هذا وانطلق خارج أسوار الجامعة، لكي يحقق مشروعه الفكري الأصيل.

تقويم لبعض الافكار الجيوبوليتيكية عند جمال حمدان

الجغرافية السياسية علم يعتمد دراسة الاقاليم السياسية كظاهرة جغرافية ويقوم بدراسة المشاكل السياسية بصورة موضوعية بعيدا عن وجهة النظر الضيقة ، حيث يقوم الباحث فيها بتحليل ودراسة العوامل الجغرافية للمشاكل السياسية الاقليمية والدولية بصورة محايدة لقد ورد تعبير «الجغرافية السياسية» لاول مرة عند كانت KANTفي نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ، على انه في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين تبلور مفهوم الجيوبوليتكس من قبل جغرافي الماني هوفرديك راتز ال RATZEL في كتابه «الجغرافية السياسية على الرغم من أنه لم يأت بمصطلح الجيوبولوتيك فكان ينادي بان الدولة تشبه الكائن الحي في احتياجاته وس سلو كه فلابد له من أن ينمو ويكبر ، وان كان راتزال قد جاء ببعض مفاهيم الجيوبولتيك الا أن الذي جاء باللفظة هو رودلف كيلن KELLENالمؤرخ والسياسي السويدي الذي كان مهتما ايضأ بالجغرافية فكان الماني النزعة اعتنق مبادىء را تزال في الجيوبولتيك مدعية أن العنصر الأساسي في الدولة يجب ان يكون القوة ، فالنظام لا يمكن تطبيقه الا بالقوة واعتقد بفكرة المجال الحيوي وتوسع المانيا وسيطرتها على اوربا ، وان المانيا ستكون اكبر قوة في العالم القديم وبذلك ، فان هذه الأفكار لراتزل وكيلن كانت من أهم الأسس التي بني عليها النازيون سياستهم التوسعية بل واصبح الجيوبولتيك بمثابة دستور جغرافي لألمانيا النازية ومما زاد هذا التحمس للجيوبولتيك ظهور نظرية قلب الأرض التي جاء بها الجغرافي البريطاني السير هارفورد ماكندر MACKINDER خرج فيها بمعادلات ثلاث، وتأثر بها حمدان ايضا وهي: انه من يسيطر على شرق اوربا يتحكم في قلب

الأرض من الفولجا إلى شرق سيبريا ومن يسيطر على قلب الأرض يتحكم في الجزيرة العالمية (اسيا واوربا وأفريقيا) ومن يسيطر على الجزيرة العالمية يتحكم في العالم.

ولقد أعطى ماكندر لألمانيا أهمية كبرى عند وضعه لهذه النظرية فهي التي تتحكم في قلب الارض لموقعها في شرق اوربا ولربما تقوم بغزوه والسيطرة عليه وبالتالي فستصبح اقوى قوة في العالم. ولقد تحمس الالمان كثيرا لهذه النظرية وكان كارل هسهوفر HAUSHOFER من اشد انصارها، وهو الذي عينه هتلر رئيسا للأكاديمية الألمانية حيث قام بإنشاء معهد للجيوبولتيك في ميونيخ ضم عددا من المع علماء الجغرافية السياسية والجيوبولتيك وبين رأيه ان الدولة يجب ان تتوسع او تموت وان المانيا يجب أن تسيطر على قلب الارض وان هذه السيطرة تتم بحرب برية. من هنا فان الجيوبولتيك هي وليدة الجغرافية السياسية فهي العلم الذي يدرس الدولة من وجهة النظر القومية و يقوم بوضع احتمالات للمستقبل بالنسبة للدولة والمشاكل السياسية في محاولة لرسم سياسة الدولة الخارجية على اسس جغرافية. وقام الألمان بالاهتمام به لمنفعة المانيا واعتبروه دليلا وضميرا سياسيا للدولة. فاعتمدوا المفهوم الحتمي بان الظروف الطبيعية هي التي تتحكم في سياسة الدولة، وتأثر بهم عدد من جغرافي اليابان وايطاليا ويحاول الجغرافيون الأمريكان خلق جيوبولتيكا تخدم اغراض الولايات المتحدة و سياستها الخارجية، والمفهوم السائد حاليا بعد نبذ المفهوم الألماني للجيوبولتيك هو أن الجيوبولتيك يعني بدراسة وتحليل الاسس الجغرافية للدولة واثر التوجه الجغرافي في السياسة الخارجية.

ان اعداد كبيرة من جغرافي الشرق الأوسط العرب وخصوصا في مصر والعراق والذين تتلمذوا في الجامعات الانجلو سكسونية قد بحثو في مواضيع الجغرافية السياسية والجيوبولتيكس او قاموا بإلقاء محاضرات فيها، على العكس من ذلك كان جغرافيو المغرب العربي المتأثرين بالفكر الجغرافي الفرنسي، والذي يكاد يهمل بحث وتدريس الجغرافية السياسية والجيوبولتيكس الا من بعض الدراسات المتفرقة المتوازنة.

وبينما نجد المكتبة الجغرافية العربية يغلب عن فروعها المؤلفات الجيوبولتيكية والجغرافية السياسية نرى من النادر جدا أن تكون هذه الدراسات اصيلة اذ يغلب عليها طابع الاقتباس او الترجمة كما فعل محمد متولي عندما اقتبس وترجم اجزاء كبيرة من كتاب فان فالكنبرج.

ولعل من اشهر الجغرافيين العرب الذين كتبوا في الجغرافية السياسية والجيوبولتيكس هو جمال حمدان الذي بذل جهدا كبيرا في التأليف بهذا الموضوع ولأهمية الدور الذي قام به والافكار الجيوبولتيكية التي قدمها، نقوم بعرض افكاره وتقويمها.

بدأ جمال حمدان در استه الجغرافية بدراسة عن سكان وسط الدلتا المصرية ثم انتقل الى ابحاث في جغرافية المدن فكان كتابه جغرافية المدن احد اجود الكتب التي كتبت بس اللغة العربية في هذا الموضوع وتنوعت دراسته من ابحاث في جغرافية المدن والجغرافية التاريخية والاجتماعية والسياسية والاقليمية ولكنه ظل متأثرا بالحتمية الجديدة محاولا ان يبرهن بشدة على الأثر الكبير الذي تفرضه الطبيعة على السلوك و النشاط البشري وهذا ما نجده دائما بصورة كبيرة في كتابه انماط من البيئات واستراتيجية الاستعمار والتحرير وشخصية مصر

دراسة في عبقرية المكان. وفي السنوات الأخيرة بحث حمدان في اربعة مواضيع اساسية في الجيوبولتيكس هي:

١- استراتيجية الاستعمار والتحرير : بحثهما في دراستين اعتمدتا التطوير التاريخي حول تطور الاستعمار في العالم العربي والعالم وحول انتقال الحضارة وتطور حركات التحرير الوطني في الوطن العربي والعالم على اساس تطبيق نظرية ماكندر التي حاول فيها ان يخضع الأحداث التاريخية لما تنص عليه النظرية.

٢- تقييم جيوبولتكي لبعض الدول والمجموعات السياسية: بحث في تقويم افريقيا الجديدة وقام بتحليل الاسس الجيوبولتيكية لدولة الأردن وفي عام١٩٧٣ اصدر كتابا عن جغرافية ليبيا السياسية ضمن افكار تلائم الوضع السياسي والعلاقات الليبية المصرية في تلك الفترة وسنقوم باستعراضه سريعا كنموذج لأفكاره في تقويم الدول من الناحية الجيوبولتيكية.

بدأ دراسته هذه باستعراض تاريخي ركز فيه عن تاريخ ليبيا المعاصر ولاسيما الاحتلال الايطالي وحركة التحرير فأشار إلى ان استقلال ليبيا نتج عن الاختلاف ما بين الدول المستعمرة فاختلاف المستعمرين ادى إلى استقلال المستعمرة حيث ذكر فيه رفض الدول الغربية منح ليبيا لانتداب الاتحاد السوفياتي كان خشية تحول ليبيا إلى قاعدة شيوعية في إفريقيا والوطن العربي، وفي حين اعطى البترول لليبيا وزنا اقتصادية هائلا اعطت ثورة ١٩٦٩ وزنا سياسيا لها بعد أن كان النظام الملكي عقبه امام هذا التطور السياسي ويعتقد حمدان اعتقادا مبالغا فيه ان ليبيا تعيش الان مرحلة الشباب (حسب تصنيف فان فالكنبرج) حيث تمارس هذه الدولة تأثيرا سياسيا خارج حدودها على النطاق العربي او العالمي. وعلى الرغم من التغير الطبيعي لليبيا،

ترد قوة ليبيا في التماثل الديني والاثنولوجي واللغوي. وفي الفصل الأخير، بحث حمدان في موضوع ليبيا والوحدة العربية.

وحاول أن يضع شكلا وتصورات لهذه الوحدة او الاتحاد مع مصر (تلك الوحدة او الاتحاد الذي سرعان ما انهار بسبب عدم اتفاق الحكام) وبذلك قام حمدان بوضع تصورات لظاهرة سياسية على اسس مهزوزة هو اتفاق الحكام المؤقت.

٣ - الحرب العربية - الاسرائيلية ووزن الوطن العربي السياسي... على اثر حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ اصدر حمدان كتابا ضمنه تصورات عن الموقف الاستراتيجي للصراع العربي الاسرائيلي في تلك الفترة حيث يؤكد أن المعركة مع اسرائيل هي معركة مصر وانه لا مجال لوجود الاثنين في وقت واحد فإسرائيل مستمرة في سياستها التوسعية من النيل إلى الفرات، ويقدر حمدان أن اسرائيل ستواجه العرب بحرب انتحارية وان على العرب أن يواجهوا إسرائيل بحرب طويلة الأمد، وعليهم شن حروب متلاحقة لجعل الحياة فيها لا تطاق، أي جعل البيئة طاردة وذلك لإقامة عقبات أمام الاستيطان الجديد وتقويض الاستيطان القديم، وهذا اغراء لفظي لان الحرب الانتحارية لا تفسح المجال للحرب الطويلة الأمد، فإسرائيل يمكن أن تقوم بحروب خاطفة وفي رأيه ان اسرائيل لا تملك دورة حياة، فهي دورة مصطنعة سرعان ما ستنهار اذا ما تغيرت عوامل التواز ن الدولي التي تدعمها فمصير اسرائيل يعتمد على مصير الامبريالية الأمريكية وان اليوم الذي ستندحر فيه اسرائيل يعتبر عصر نهاية للإمبريالية، ويخرج حمدان بعدة معادلات يحاول أن يبرهن فيها أن مصير العرب وفلسطين يعتمد على قوة مصر فيقول.

مصير الامبريالية العالمية يتوقف على مصير العالم الثالث

مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربي

مصير العالم العربي يتوقف على مصير فلسطين / إسرائيل

مصير فلسطين / اسرائيل يتوقف على مصير مصر

مصير مصر يتوقف على مصير فلسطين / إسرائيل

في الواقع، أن مثل هذه المتواليات الحتمية ليست بغريبة على الفكر الجيوبولوتيكي ففي بداية القرن العشرين جاء السير هارفورد ماكندر بمتواليات حتمية ايضا حول مصير العالم وتأثر بها حمدان كثيرا وسرعان ما ثبتت عمقها امام تطور الأحداث السياسية والتكنولوجيا في العالم . وان حمدان كان مصيبة عندما ذكر ان (مصير الامبريالية يتوقف على مصير العالم الثالث). فالعلاقة بينهما علاقة ما بين مستغل و مستغل حيث تقوم الدول الامبريالية باستغلال شعوب العالم بمحاولة السيطرة على هذه الدول والتحكم فيها سياسيا واقتصادية، وان (مصير العالم الثالث يتوقف على مصير العالم العربي) والعالم العربي يمتلك ثروات هائلة يمكنه من تطوير نفسه وتقديم المساعدات لدول العالم الثالث التي لا تملك البترول، وهي التي تطلق عليها الان دول العالم الرابع في جميع فترات التاريخ كانت دول العالم الرابع حاليا متحرره عندما يكون الوطن العربي قويا، (وأن مصير العالم العربي مرتبط بمصير الصراع العربي الاسرائيلي) حيث تقوم اسرائيل بالاعتداء على العرب، وان بقائها يعني بناء جيش امبريالي يحاول استنفاد طاقات هذه الأمة والمحافظة على المصالح الامبريالية في الوطن العربي.

ثم ينتقل حمدان إلى محاولة تقويم الوزن الجيوبولتيكي العربي. ففي رأيه ان العرب قد احتلوا وزنا بين القوى العالمية فهم ممتلكون المقومات الأساسية التي يحتاجونها لبناء قوة هائلة اقتصادية ويؤكد أن الشاغل الرئيسي للقوة الاستعمارية العالمية كانت وما تزال العمل بكل السبل لمنع قيام قوة عربية قومية ولكن العرب بكفاحهم استطاعوا أن يدخلوا في اطار لعبة القوى الدولية، فالعرب قد خرجوا من نطاق جذب احدى هذه القوى او تلك وبدأوا بتطبيق سياسة مستقلة ومبدأ هذه السياسة هو عدم الاعتماد على كتلة واحدة وبذلك فان حمدان يساوي ما بين الكتل العالمية.

٤ - البترول: يعتقد حمدان أن هناك ثورتين في تاريخ العرب، الأولى ثورة الاسلام، والأخرى ثورة البترول لقد بحث في موضوع البترول مرتين الأولى في عام ١٩٩٤. حيث اعتقد ان البترول قد عمق الهوة بين العرب وعرضهم لخطر الاستعمار الاقتصادي، وفي هذه المرحلة كانت الاحتكارات البترولية تسيطر على استغلال البترول العربي فكانت هذه الاحتكارات تعاقب الدول العربية وذلك بالتحكم في انتاج هذه الدول مثلما كانت الحال بالنسبة للعراق، اذا كانت الشركات (دولة داخل دولة) وفي الوقت ذاته. كان البترول مصدر الحياة لعدوة العرب لإسرائيل، فكان الاستعمار الأمريكي يستلم البترول بيد ليسلمه للكيان الصهيوني باليد الأخرى حيث لعب دور الوسيط، فالشركات الأمريكية تستخرج البترول وتحصل على الأرباح الهائلة والولايات المتحدة تقدم المساعدات الاسرائيل.

ولكن حمدان لم ينس فكان متفائلا لان البترول سيكون اسمنت القومية العربية. وفي عام ١٩٧٤، عاد حمدان ليبحث في موضوع البترول. وكانت ازمة البترول قد بلغت اشدها في العالم الغربي نتيجة

حرب اكتوبر ١٩٧٣ وقيام عدد من الدول العربية ومنها (العراق) بالسيطرة على موارده النفطية وتخفيض الانتاج مما أدى إلى ارتفاع اسعاره ارتفاعا كبيرا وحاولت الدول المنتجة، في الوقت ذاته البحث عن سعر عادل لإنتاجها واعتقد حمدان أن البترول اشد فعالية من القنبلة الذرية كسلاح سياسى وان العرب يملكون موقفا قويا للغاية في هذا المجال نتيجة للاحتياطي الكبير الذي يمتلكه. وان استخدام هذا النوع من السلاح المشروع دفاعا عن النفس من فعالية كبيرة وان الدعوة لعدم استخدامه في دعوة الوطن العربي للانتحار وان ادعاؤه بالابتزاز ما هو الا حجة واهية ضد العرب ويستشهد بجدة امثلة للحرب الاقتصادية قام منها الغرب ضد العرب فيها... حرب القمح ضد مصر، وسياسة تقديم عروض التمويل واعادة سحبها من قبل الولايات المتحدة (مشروع السد العالي) والتحكم بأسعار المواد الأولية، . كل هذه الامور مرت بهدوء وكان ضحيتها دول العالم الثالث والعرب على السواء، وأعتقد حمدان بانه ما عانى جزء كثير من الاقتصاد العالمي من مشاكل بسبب البترول. فان الهدف لم يكن لمعاقبة احد او دولة من الدول وان كان واضحا أن هنالك مسؤولية دولية في انشاء اسرائيل وان هذا العالم لم يدن جرائم إسرائيل وسياستها العدوانية وان هذا العالم ايضا مسؤول عن دم العرب والفلسطينيين من اللاجئين والضحايا، وعليه فمن العدل أن يتحمل هذا العالم جزءا من عذاب الفلسطينيين و العرب.

ان تجربة استخدام سلاح البترول، كان تحذيرا للعالم بان السلام، والعدالة لا يتجزأ وان على العالم أن يقوم بالضغط على الولايات المتحدة لحملها على الاختيار ما بين بترول العرب او فتوحات إسرائيل. ان الحصول على الأسلحة المتطورة بكميات كبيرة ممكن من

اوربا الغربية وان هذه الأسواق التي هي الآن مغلقة بوجه العرب (في تلك الحقبة ١٩٧٣- ١٩٧٤) بحجة الحياد يمكن أن تفتح تحت ممارسة الضغط البترولي. على العرب ممارسة تبادل سلعتهم الاستراتيجية (البترول) بسلع استراتيجية اخرى (السلاح) يمكننا أن نلخص افكار حمدان في الجيوبولتيك، حيث يظهر لنا انه متأثر إلى حد كبير بالأفكار التي تعتمد على القومية والدين والعنصر كما هو الحال في تقويمه لدولة ليبيا، حيث يجاري تقاليد الدراسات الجيوبولتيكية التي ترى أن قوة الدولة تعتمد بصورة اساسية على طبيعة اقتصاد تلك الدولة (البترول) وان الصراع الذي تقوم به الدول او التوازن الدولي الذي تدعيه لا يمكن فهمه الا من خلال السيطرة على المواد الاستراتيجية.

ان هذه الأفكار التي مارسها الجيوبولتكيون الألمان والانجليز في النصف الأول من هذا القرن واثرت بعضها في السياسة الدولية في ذلك الوقت لا تعتمد في اهميتها على الاصالة وطرق البحث العلمي، فالكثير منه فقد الدقة العلمية وأن هذه الافكار تعتمد على نجاحها في استقطاب الجمهور حولها وتقبلهم لها. ويبدو أن هذه الأفكار في الوطن العربي الآن جمهورا واسعا يتقبلها، وان جمال حمدان يلعب دورا رائدا في هذا المجال ولربما كان له دور لا يهمل للتأثير في السياسة العربية، فهو ينظر إلى الاقليم السياسي من وجهة النظر السياسية وبذلك يخرج بمحاولاته التي تؤكد في النهاية، وكان مصير العالم مرتبط بزعامة مصر.

وعليه فيمكن القول بأن حمدان، وان حاول ان يدرس الجيوبولتيك بمفهومه الحديث بقي اسيرا لكثير من المفاهيم التي جاء بها الجيوبولتكيون الالمان وما كندر، وان كان اقل منهم حتمية.

جيوبوليتيكية الحروب الصليبية

دراسة لرؤية جمال حمدان الاستراتيجية

يلاحظ أن كتاب استراتيجية الاستعمار و التحرير الذي أصدره جمال حمدان بالقاهرة عام ١٩٦٨م أي في العام التالي مباشرة لعدوان إسرائيل علي مصر عام ١٩٦٧م مما دل علي أن ذلك الكتاب كان نوعا من الاستجابة العلمية لذلك التحدي الإسرائيلي لمصر والمنطقة العربية و الذي جاء مواكبا لكافة مراحل الرحلة العلمية لجمال حمدان مع عدم إغفال أنه دفع حياته في النهاية ثمنا لذلك الأمر مع عدم إغفال أنه تطوير لكتابه السابق الاستعمار والتحرير في العالم العربي، الذي صدر بالقاهرة عام ١٩٩٣م.

والواقع أن جمال حمدان كان واسع الثقافة و عميقها وأستطاع إخراج علم الجغرافيا من حدوده الأكاديمية المتخصصة الضيقة من أجل فهم قضايا عديدة بالاشتراك مع العديد من العلوم الإنسانية الأخرى خاصة التاريخ، ويكفي الإشارة إلى عبارة عميقة و فارقة أوردها حيث ذكر ما نصه:" إن الجغرافيا ... هي الجذر الجبري للتاريخ، وعملية استقطاب له و تركيز، أكثر من هذا ليس التاريخ كما عبر البعض إلا جغرافيا متحركة بينما أن الجغرافيا تاريخ توقف " ولا ريب في أن تلك العبارة تعكس قدرة ذلك المفكر الفذ علي التزاوج بين عائلة العلوم الإنسانية، وإدراكه اليقيني للتوأمة بين علمي الجغرافيا والتاريخ، ولا نغفل هنا التأكيد على أن الجغرافيا توجه التاريخ وأن التاريخ ما هو إلا الصراع علي الجغرافيا.

كذلك نذكر هنا مقولته " إن التاريخ هو معمل الجغرافي كما قيل، وهو كذلك مخزن الاستراتيجي الذي لا ينضب، وكل منهما يستمد خامته منه و يجري عليه تجاربه "

ونخلص من ذلك أن جمال حمدان كانت له رؤيته الخاصة نحو التاريخ و أتصور أنها تفوقت أيضا على رؤية العديد من المؤرخين الذين قصروا دراسته علي المنهج السردي الوصفي، و لم يلجأوا إلى التحليل والمقارنة والإفادة من الجغرافيا من أجل تعميق الرؤية الاستراتيجية، وبالتالي فإن هذا البحث يلقي الضوء على ذلك المفكر من خلال منظوره التاريخي للحروب الصليبية كحركة استعمارية.

ويلاحظ فيما يتصل بمصطلح الحروب الصليبية نجده قد قرر" قد تكون الصليبيات بدرجة أو بأخرى اسما علي غير مسمي لأنها وإن كان الدين شعارها المعلن فإن المسلم به اليوم غربا وشرقا أن محركاتها ودوافعها الخبيئة كانت أساسا علمانية مادية اقتصادية ".

والواقع أن ذلك القول من جانبه دقيق إلى حد كبير؛ لأنها بالفعل حركة تاريخية كبري في العصور الوسطي اتخذت من الصليب شعارا لها و المسيحية ذاتها بريئة من ذلك، و الأمر المؤكد أن دوافعها كانت متعددة من سياسية، واقتصادية، ودينية، واجتماعية، و مع ذلك قد نختلف معه من خلال أنه حتى اليوم لا يزال هناك من يري أن دوافعها لا تخرج عن الجانب الديني، و هو ما نجده علي سبيل المثال لدي بعض المؤرخين من المسيحيين الشرقيين كالموارنة في لبنان، وإن كان ذلك أمر نادر إذ أن الغالبية من المؤرخين المحدثين في الشرق و الغرب على حد سواء تدرك دوافع تلك الحروب الطاحنة في حقبة العصور الوسطى.

ولا يغفل المؤرخ المتخصص في تاريخها ملاحظة أن المدن التجارية الإيطالية مثل جنوة وبيزا والبندقية اشتركت في أحداثها من أجل تحقيق المكاسب المادية، بل تصارعت معا فيما بعد كما اتضح بجلاء خلال القرن الـ١٣م علي نحو أدي في النهاية إلي فشل المشروع الصليبي برمته مع وجود عوامل أخرى بطبيعة الحال لا مجال هنا لتفصيلها هنا.

كذلك يلاحظ أن إسقاط العاصمة البيزنطية القسطنطينية في عام ١٢٠٤م خلال أحداث ما اشتهر بالحملة الصليبية الرابعة كان من خلال رغبة دفينة لدي البندقية للتخلص من المنافسة التجارية مع القسطنطينية مع عدم إغفال سعي البابوية في روما ممثله في البابا انوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٩م) في إخضاع كنيستها لسيادة كنيسة روما الكاثوليكية.

والأمر المؤكد أن التجارة تفسر الكثير من دوافع تلك الحروب وفي ذلك قرر: "كانت الدول العربية الإسلامية في الشرق الأوسط والأدنى بحكم موقعها البؤري تسيطر سيطرة شبه احتكارية على جميع أعصاب التجارة العالمية بين الشرق و الغرب، و كانت هذه تصب دخلا ضخما يمثل حصيلة استثمارات الموقع الجغرافي ويمنح السراقنة Saracens - كما كان الغرب يسمي عرب المشرق - يمنحهم قوة مادية و حضارية وحربية لا تقدر فبدأت مدن أوروبا التجارية تتطلع إلي هذا الفيض الدافق في غبطة و حسد تريد إما أن تشارك فيه أو تنقض عليه".

والأمر المؤكد أن تلك الحروب قامت - في بعض دوافعها - من أجل إنهاء دور المسلمين كوسطاء تجاريين بين الشرق والغرب وإخضاع خطوط التجارة العالمية لتصبح في قبضة الغرب الأوروبي خاصة المدن التجارية الإيطالية السالفة الذكر، وفي هذا المجال من

الممكن الرجوع إلي ما ألفه هايد، و كذلك موريس لومبار من أجل الإلمام بتلك الناحية مع ملاحظة أن أركان التجارة حينذاك تمثلت في التوابل، و الحرير، و الرقيق، و الذهب. و إلى جانب الدافع المذكور يقدم لنا جمال حمدان دافعا أخر في صورة الفارق الحضاري والاجتماعي والمعيشي الشاسع بين الشرق العربي والغرب المسيحي. وقد قرر أن الأول كان في أوج عصره الذهبي بينما كان الثاني يعاني التخلف فيما اسماه حضيض عصوره المظلمة وإن كنت أتصور أن ذلك الجانب لا يمكن اعتباره عاملا فعالا في منظومة دوافع الحركة الصليبية المتكاملة، كذلك لا نغفل أن فكرة العصور الوسطي الأوروبية عصور مظلمة كلها أمر مغلوط لسبب يسير يتمثل في أنها شهدت نهضات إحيائية من أمثلتها نهضة جستنيان (٥٢٧- ٥٦٥م) في الشرق البيزنطي و النهضة الكارولنجية لشارلمان (ت٨١٣ م) ثم نهضة القرن الثاني عشر وهي أخطر وأهم النهضات الأوروبية في تلك العصور و إن حدثت بعد اندلاع الصليبيات، إلا أن قبلها حدثت نهضات أوروبية لا سبيل لإنكارها.

من ناحية أخرى، أدرك جمال حمدان وهم الدافع الديني فيما يتصل بالأراضي المقدسة و حماية الحجاج، إذ قرر " أما دعوي الدفاع عن المسيحيين في الأراضي المقدسة وحماية الحجاج من اضطهاد السلجوقية الحاكمة حينذاك فهو بإجماع الآراء حجة ملفقة ومنطق تبرير لا أكثر".

وبالفعل فإن تصوره في هذا الجانب صائب تماما ويكفي لنا أن نورد ما قرره المؤرخ الألماني البارز هانز ابرهارد ماير حيث قرر أنه لا يوجد ما يدعم فكرة حدوث اضطهاد جماعي من جانب الأتراك ضد المسيحيين الشرقيين علي نحو يبرر حدوث الحروب الصليبية.

ويصل إلى تعريف تلك الحروب علي أنها نوع من الاستعمار السياسي والاقتصادي الذي لا شبهة منه إلا شبهة قناع الدين، وقد قرر أن من الكتاب الغربيين من اعتبرها " أول حركة استعمارية كبرى قام بها الغرب الأوروبي في العصور الوسطي " ويلاحظ هنا أن المؤرخ الإسرائيلي يوشع براور أكد ذلك المعني من خلال كتابه عن تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية الاستعمار الأوروبي في العصور الوسطي.

وجمال حمدان في رؤيته للحركة الصليبية كحركة استعمارية يؤصل الأمر حين يدرك أنها حركة وصل أو مرحلة انتقال بين الاستعمار القديم الذي مارسته أثينا و روما و بين الاستعمار الحديث، وأدرك الفارق بينهما من خلال أن الاستعمار القديم كان قد اقتصر علي قوة دولة محددة أما ما حدث في العصور الوسطي فقد خرجت دول من غربي أوروبا وجونبيها ووسطها أي أنها كانت حركة أوروبية عامة و ليست جزئية.

ومن جهة أخرى، أوضح أن الحروب الصليبية اتخذت طريقين أساسيين، هما الطريق البري عبر قلب أوروبا وصولا إلي البلقان ثم الأناضول البيزنطي، ثم طريق البحر المتوسط مع ملاحظة أن الطريق الأول كانت له مصاعبه البرية من خلال وعورة التضاريس أحيانا ثم العدو البيزنطي للصليبيات كما اتضح فيما بعد أما البحر المتوسط فكان بالفعل الطريق البحري البارز ولا نغفل هنا ملاحظة أن الحركة الصليبية هي في مجملها ظاهرة بحر متوسطية وجرت أحداثها بين ضفته الغربية (فرنسا في الأساس) و ضفته الشرقية وأعني بها بلاد الشام و الجزيرة الفراتية إلى الشرق منها.

وقد أدرك ذلك المفكر أنه كان للصليبيين هدف استراتيجيا اشتمل علي الشام كله والعراق والحجاز ومصر أي النصف الشمالي من دائرة المشرق العربي على حد قوله. ومن الممكن الاتفاق معه في مجمل تصوره، غير أن القول بأن الحجاز كان في دائرة الأهداف الاستراتيجية الصليبية، يمكن الاختلاف معه بشأنه فالمفترض أن ذلك كان هدفا جانبيا بجوار مناطق الاستهداف الأصلية كما في بلاد الشام والعراق ومصر، حيث لا يوجد ما يؤكد جزئية الحجاز كهدف صليبي إلا من خلال حملة الفارس الفرنسي رينو دي شاتيون أو إرناط الفاشلة عام ١١٨٣م. مع ملاحظة أنه مع أواخر العصور الوسطي وبداية العصر الحديث ظهرت محاولات البرتغاليين للوصول إليه من خلال مهاجمة ميناء جدة، وإن سعت الدولة العثمانية إلي مواجهة ذلك الخطر و جعل البحر الأحمر بحيرة إسلامية مغلقة.

وفي تقييم ذلك المفكر الجغرافي والتاريخي لنجاحات الصليبيين أدرك أهمية استيلائهم علي ساحل شرق البحر المتوسط الذي شكل إخضاعه هدفا استراتيجيا صليبيا لا يتغير بتغير الملوك الصليبيين، وقد استمرت تلك العملية ما زاد علي نصف قرن من عمر الحركة الصليبية (١١٠٠- ١١٥٣م) أي ربع تاريخ الصليبيين في الشرق وقد اعتبر الصليبيون ذلك بمثابة قضية حياة أو موت لأنه ربطهم بالوطن الأم في أوروبا حيث الدعم البشري والمادي والمعنوي اللازم لاستمرار وجودهم في الشرق و لذلك وصف بأنه كان الرئة التي تنفس من خلالها الأعداء، وقد وصف صورة الكيان الصليبي علي أنه أشبه بزاوية قائمة أنظر قوله: "استطاعت الصليبيات أن تمثل في أقصي توسعها النطاق الساحلي من الشام حتى قمم السلسلة الجبلية الغربية، دون أن تتعداها غالبا، ورسمت زاوية قائمة بتوغلها إلي أعلي الفرات

في الرها، وأقامت في هذا النطاق سلسلة مفككة من الإمارات والممالك الإقطاعية علي غرار تنظيمها السياسي الإقطاعي في أوروبا ".

والواقع أن الوصف السابق ينطبق تماما مع الواقع التاريخي والأمر المؤكد أن الكيان الصليبي ممثلا في إمارات الرها و أنطاكية وطرابلس والقطاع الفلسطيني لمملكة بيت المقدس الصليبية كان على هيئة بلطة ذراعها في الساحل الشامي ورأسها في إمارة الرها التي عدت محطة إنذار صليبية مبكرة و متقدمة لمواجهة إغارات المسلمين من الشرق.

من جهة أخرى، يرصد نجاح الصليبيين في تحقيق إنجازاتهم السالفة الذكر لسبب أساسي هو " عدم وحدة الشام العربي وتمزقه إلي كوكبة متنافسة من دول المدن، والولايات، والأتابكيات..." والواقع أن فكرة السبب الرئيسي الواحد ليست منطقية، حقيقة أن تصارع الدويلات الإسلامية المذهبي و السياسي جعل من بلاد الشام منطقة رخوة سياسيا بين قوتين عباسية سنية في العراق و فاطمية شيعية في مصر، إلا أن الانقسام و التصارع لم يكن هو السبب الرئيسي الوحيد بل هناك أسباب أخري لا تنكر، منها كفاءة الصليبيين العسكرية، ودقة اختيارهم للتوقيت الملائم من أجل القيام بتلك الحروب وامتلاكهم لسلاح المعلومات و معرفتهم بأوضاع المسلمين من خلال الجواسيس والتجار و الحجاج و غيرهم، والأمر المؤكد أن هناك مؤامرتين حدثتا في ذلك العصر: مؤامرة المسلمين على أنفسهم من خلال تصارعهم المذهبي و السياسي - وهو أمر أتفق فيه مع ذلك المفكر - و أيضا مؤامرة أخرى ماكرة من الغرب الأوروبي ، وبالتالي فإن عصر الحروب الصليبية شهد مؤامرتين متزامنتين داخلية وخارجية.

ونظرا لأنه أصدر كتابه في الستينيات من القرن الماضي في ظروف المد القومي نجده يستعمل تعبير" عربي "بدلا من "إسلامي "، فبالتالي فإن قوله الشام العربي لا ينطبق على الحقيقة التاريخية والأفضل أن يقال الإسلامي فقد تواري العنصر العربي أمام العناصر التركية والكردية الأخرى في ذلك العصر ونفس الأمر يقال عن كتاب العلامة سعيد عاشور حيث جعل عنوان كتابة الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى خلال نفس المرحلة القومية المذكورة، ثم عاد وجعله الجهاد الإسلامي فيما بعد.

وكذلك لا نغفل أن ذلك المفكر، أدرك أهمية عنصر الوحدة بين بلاد الشام ومصر وأثر ذلك علي تطور الأحداث في ذلك العصر لصالح المسلمين وهو بالتالي يذكرنا بالمؤرخ الرائد ا.د. محمد عبد الهادي شعيرة الذي نحت تعبيره الفريد "الشامصر " ويعني بها الرابطة الجغرافية و التاريخية بين بلاد الشام ومصر عبر حقب التاريخ المتعددة قديما ووسيطا وحديثا، ونجده يقرر أنه ". كان تحرير الأراضي المقدسة رهنا باتحاد قوة مصر البشرية مع قوة الشام وحين تحقق هذا كانت حطين صلاح الدين في النصف الثاني من القرن الثاني عشر هي " ارماجدون " الصليبيات و بداية نهايتها، وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر كانت هذه النهاية ".

وهكذا يتأكد لنا أن جمال حمدان بحسه الجغرافي العميق أدرك تلك الرابطة وأثرها في تغيير الأحداث ضد الصليبيين وكان محقا في نظرته لمعركة حطين التي وقعت في ٤ يوليو عام ١١٨٧م، و التي نتج عنها إسقاط مملكة بيت المقدس الصليبية ودخول المسلمين مظفرين بيت المقدس في ٢ أكتوبر من نفس العام ثم فتح الساحل الشامي الذي ظل علي نحو كامل تحت السيادة الصليبية خلال المرحلة الواقعة بين عامي

١١٥٣م، ١١٨٧م كذلك لا نغفل إسقاط شبكة القلاع الصليبية المتعددة التي أقامها الغزاة من أجل تثبيت أركان كيانهم الغازي الدخيل.

وقد أصاب قلب الحقيقة عندما ربط بين حطين ١١٨٧م و بين نهاية الوجود الصليبي في بلاد الشام مع ضربات المسلمين بقيادة المماليك القوية من خلال جهود الظاهر بيبرس وقيادته للمسلمين لإسقاط إمارة أنطاكية عام ١٢٦٨م، والمنصور قلاوون و قيادته لهم لإسقاط إمارة طرابلس عام ١٢٨٩م، ثم الأشرف خليل بن قلاوون الذي قادهم لإسقاط عكا عام ١٢٩١م ليضع نهاية التاريخ ذلك الكيان الأجنبي.

كذلك حرص على أن يوضح أن أرض الكنانة كانت في بؤرة المشروع الاستعماري الصليبي ولذلك كانت الحملتان الصليبيتان الخامسة والسابعة عليها، وقد أصابهما الإخفاق المبين علي الرغم من الآمال العريضة التي علقت عليهما من جانب الغرب الأوروبي نفسه وكذلك عناصر الصليبيين المحليين في بلاد الشام.

وهو كجغرافي أدرك أن براري وسهول دلتا نهر النيل أفشلت تلك الأطماع، و يقول ما نصه " ما بين بداية النهاية، و نهايتها تحولت الصليبيات إلي مصر حيث أدركت بالتجربة المريرة أنها قطب المنطقة استراتيجيا وبشريا، ففي النصف الأول من القرن الثالث عشر نالت مصر موجتان أبيدتا بالضربة القاضية في براري وسهول الدلتا بعد أن أغرقتا في بيئتها الإسفنجية المشبعة " وهكذا يقدم لنا ذلك الجغرافي الفذ رؤيته وإدراكه لأهمية الموقع الجغرافي وطبيعة المنطقة الطبوغرافية علي مسار الأحداث التاريخية الفارقة حينذاك.

وتجدر الإشارة هنا إلي أن الصليبيين تعد ابرز عقد تاريخهم المستحكمة علي مدي القرنين ١٢، ١٣م أنهم نجحوا أسيويا وفشلوا إفريقيا، وكان السبب الرئيسي من وراء ذلك الإخفاق الدور الفريد لمصر التي أكدت في ذلك العصر. مثلما الأمر سابقا ولاحقا - أنها بالفعل مقبرة الغزاة مع عدم إغفال الدعم الذي وصل إليها من شقيقتها بلاد الشام.

وهو قد أضاف بعد ذلك الأمر أن الصليبيات عادت إلى موقعها القديم في بلاد الشام بعد الإخفاق في دلتا النيل حيث قرر: ".. فعاد صراع التصفية إلي الشام ثانية حيث دفعت الصليبيات إلي البحر نهائيا"، ومع ذلك فينبغي أن نتفهم كلمة نهائيا هنا علي اعتبار ارتباط الأمر ببلاد الشام، لأن الصليبيات استمرت من بعد ذلك.

ومثل ذلك المفكر الاستراتيجي دائما يحلل ويعمق رؤيته بصورة نفتقدها لدي قطاع عريض من المؤرخين المحدثين، وهو لا يقف عند الحدث التاريخي كما حدث بل يعتصر دلالاته من خلال نظرة الصقر المحلق بجناحي الجغرافيا والتاريخ والرؤية الاستراتيجية الثاقبة وأورد هنا ما ذكره عن استمرار الصراع فيما بعد عام ١٢٩١م حيث ذكر ما نصه: " إلا أن ذيول الصراع ظلت في البحر المتوسط بعد ذلك طويلا و هي تتراجع بالتدريج غربا فقد لجأت القوي الصليبية، بعد أن انكسرت سيوفها علي قلعة الليفانت (يقصد شرقي البحر المتوسط) إلى لون من الحصار القاري " العالم العربي لخنق تجارته مع أوروبا و إلي مبارزة بحرية عبر كباريه المتحركة - جزره و مضايقه - تمثلت في سلسلة من غارات القرصنة على سواحل إفريقيا العربية وفي حملتين من الغزو علي تونس في النصف الأخير من كل من القرنين الثالث عشر و الرابع عشر، علي أن ذلك فشل جميعا ، وهنا سنلاحظ

أن الصليبيات تحركت في خط سيرها التاريخي حركة محددة مع عقارب الساعة فقد بدأت من الشام ثم انتقلت إلي مصر وتونس ".

ولست في حاجة إلي التقرير بأن ذلك التحليل الاستراتيجي العميق لم يتأت من جانب مؤرخ سابق علي هذا النحو وإنما من جانب ذلك المفكر البارز جمال حمدان من خلال رؤيته الاستراتيجية ، وقد دل ذلك بالفعل علي أنه لا يجزئ رؤيته ويقصرها على نطاق جغرافي محدود بل ينظر إلي الأمر كقضية عامة شاملة لكافة أبعاد البحر المتوسط شرقه وغربه على السواء من جهة أخري نجده نظر إلي أحداث الأندلس ورأي أن حرب الاسترداد الإسبانية La Reconquesta هي أخر فصل في الصليبيات، و قد قرر أن القرون الثلاثة المتمثلة في الثالث و الرابع و الخامس عشر ترسم في هيكلها بانتظام خريطة تقدم للمسيحية وتقهقر للعرب نحو الجنوب حتى كان الخروج النهائي في ١٤٩٢م وهو يحاول أن يضع يده علي موضع الداء في صورة الانقسام بين المسلمين، - مثلما حدث نفس الأمر من قبل في بلاد الشام عشية قيام الصليبيات - وقد أشار إلي " اطراد اتحاد الإمارات المسيحية مع إطراد انقسام الإمارات العربية هي ضوابط الصراع المصيري، ومع طرد الموريسكيين عدة ملايين - إلي المغرب العربي، انتهي الغرب الأوروبي و أصبحت الأندلس "فردوس العرب المفقود ".

ومن الجلي البين أنه يوجز و يختصر أحداثا عديدة علي مدي عدة قرون من أجل الحصول علي عصارة التاريخ أو الحصاد الختامي له فهو يهتم بدلالة الأحداث و نتائجها لا بذاتها ، و هو في الفقرة السابقة يشير إلي حصاد الصليبيات المرير وما نتج عنه من مأسي إنسانية مروعة شرقي البحر المتوسط وكذلك غربه كما تمثل في محنة الموريسكيين.

أما فيما يتصل بأثر الحروب الصليبية، فقد أدرك أن أوروبا استفادت منها حيث تعلمت علي يدي أستاذ الشرق العظيم، وقد أدرك بثاقب بصره كيف أن مدة إقامة هذا الوجود الصليبي في الشرق كانت أشبه ببعثة علمية استفاد الغرب منها علي اعتبار أن تلك المرحلة مثلت أحد الجسور التي عبرت عليها الحضارة الإسلامية إلى أوروبا العصور الوسطى، وقد أدرك أن ذلك كان عاملا علي انطلاقها من بعد ذلك نحو النهضة و في ذلك قرر ما نصه: " كانت الصليبيات درسا حضاريا قبل كل شيء لأوروبا، فقد كانت احتكاكا حضاريا بين الشرق القديم و الغرب المتخلف و ستنعطف أوروبا علي نفسها بعدها قليلا أو كثيرا، وستترك البحر المتوسط في حاله لتعكف على تنمية و تطوير ما تعلمته من الشرق العربي حتى تخرج في النهاية أقوي من هذا الشرق وتقلب موازين الصراع".

وهكذا نجده يقدم لنا قصة الحضارة خلال تلك المرحلة الفارقة في تاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب في العصور الوسطي وصولا إلى بدايات العصر الحديث بل أنه يقرر صراحة أن الصليبيات دعمت الشعور القومي لدي الغرب و لذلك عدها البعض بداية التاريخ الحديث ومع ذلك ليس في مقدورنا الاتفاق معه علي ذلك التصور لأن مرحلة القرنين ١٢- ١٣م تعد بمثابة العصور الوسطي العالية High Middle Ages ولا يوجد هنا تصور لبدايات العصر الحديث قبل القرن الرابع عشر حيث بدأ دانتي الليجيري يكتب الكوميديا الإلهية بالإيطالية، وحدثت تغيرات عديدة كشف لنا أن العصور الوسطي بدأت تنحسر لتدخل أوروبا في عصر جديد.

أما بالنسبة للجانب الإسلامي، فنجده يقرر أن نتائج الصليبيات تتمثل في أنها " تؤكد لنا مرة أخري خطورة موقعها البيني (أي

المنطقة العربية) التي تجعلها مطمع أنظار الهامشيين وتعلمنا أنه رهن بوحدته في وجه هذا التحدي الواقع، وإن بها، و ربما بها وحدها، يمكن أن تأمل في أن تتصدي للقوي الغربية البحرية مجتمعة و تصدها في النهاية ". و كأن ذلك المفكر يقدم وصيته لأمته في ضرورة الوحدة، وهو أمر عجزت عنه مرات عديدة في عصرنا الحديث للأسف الشديد. كذلك لا نغفل هنا الإشارة إلى أن جمال حمدان ألف كتابه هذا في الستينيات و لم يطل به الأمر إلي أوائل الألفية الثالثة حيث أكذوبة ووهم العولمة Globalization التي هي عولمة الفقر وإذابة الثقافات لمصلحة قوة غربية مهيمنة واحدة ولا نعرف إذا افترضنا أن طال به الأجل إلي ذلك الحين كيف كان ينصح أمته من خطر الحرب الصليبية المريرة التي شنت علي الإرهاب المزعوم بينما الإرهاب أصلا صنيعة غربية كما كشف عن ذلك صراحة المفكر الفرنسي رجاء جارودي في كتابه الإرهاب الغربي. و بصفة عامة يمكن أن نستخلص أهم سمات رؤية جمال حمدان للحروب الصليبية على النحو الآتي:

أولا: إن رؤية جمال حمدان للحروب الصليبية كمشروع استعماري أوروبي ضد المسلمين في الشرق لا يمكن فصلها عن موجة المد القومي في الستينيات التي قادها ابن مصر البار جمال عبد الناصر و التي مثلت حركة إفاقة عربية نحو التخلص من الاستعمار الغربي البريطاني والفرنسي وهو الذي قال مقولته الشهيرة " علي الاستعمار أن يحمل عصاه و يرحل "، و ذلك المفكر المصري البارز هو بالفعل نتاج ثورتي مصر الخالدتين في تاريخها الحديث عامي ١٩١٩ م، ١٩٥٢م حيث ولد بعد الأولي بتسع سنوات، وعاش ٤٣ عاما بعد الأخيرة، ومثل تلك المرحلة جعلته يعايش الاستعمار

البريطاني البغيض لمصر ويشهد إخراجه باتفاقية الجلاء عام ١٩٥٤م ولاريب في أن ذلك كله عمق فهمه للحروب الصليبية كحركة استعمارية .

ثانيا: الأمر المؤكد أنه طالع مؤلفات عديدة عن أحداث تلك الحروب الطاحنة، وعلى الرغم من ذلك لم يقع أسيرا لها، بل بحث عن دلالتها و عالجها برؤية بانورامية من جانب مفكر استراتيجي اعتمد علي الجغرافيا والتاريخ ليكون رؤية متميزة لأحداث عدة قرون عبر صفحات معدودة من الكتاب المذكور.

ثالثا: كان جمال حمدان محقا عندما نظر للحروب الصليبية على اعتبار أنها حركة استعمار أوروبي في العصور الوسطي، وقد سبق غيره من المؤرخين حتى الأوروبيين في ذلك مع ملاحظة أننا هنا نعني التوصيف بالاستعمار الاستدمار أي النهب المنظم لثروات البلاد على حساب أبنائها الأصليين.

رابعا: اتسمت رؤيته بالشمولية و التعامل مع البحر المتوسط كظاهرة متكاملة من خلال صدام الحروب الصليبية، كذلك دعم شمولية الجغرافية بالربط التاريخي بين الاستعمار القديم من جانب أثينا و روما و كذلك في العصر الحديث مرورا بالحروب الصليبية خلال حقبة العصور الوسطى، و بالتالي قدم للمؤرخين درسا عمليا نحو ضرورة تجاوز الجزئيات الصغيرة و المحدودة و الانطلاق نحو أفاق أرحب.

خامسا: من الممكن أن نصف رؤيته للحروب الصليبية بأنها جغرافية تاريخية أو تاريخ جغرافي وهو ما كان من الممكن أن يتأتى له إلا من خلال عنصر الخبرة العريضة بقضايا الصراع الدولي عبر عصور التاريخ المختلفة ودراسة مواقعها الجغرافية، و من هنا كان

عرضه المتميز والمركز والعميق لتلك الظاهرة التاريخية الكبرى في العصور الوسطي.

سادسا: من الملاحظ أن جمال حمدان مع إدراكه لأهمية الموقع العبقري لمصر ودورها التاريخي في خضم الصراع الإسلامي - الصليبي إلا أن ذلك لم يكن علي حساب رؤيته الاستراتيجية ولذلك نجده يتوازن في إيراد دورها ولا يفصلها عن الأدوار التاريخية المعاونة في صورة شقيقاتها العربيات في بلاد الشام والعراق.

سابعا: من خلال هذا البحث اتضح لنا بجلاء كيف أن جمال حمدان امتلك لغة علمية خاصة به حيث نحت لنا عدة عبارات تعكس ابتكاراته الاستراتيجية منها " موقعها البؤري "، " بيئتها الاسفنجية المشبعة "،" صراع التصفية "،" الحصار القاري"، "قلعة الليفانت "، "مبارزة بحرية "، "عبر كباريه المتحركة جزره ومضايقه " وبالتالي استطاع أن يطوع لغته لخدمة فكره الاستراتيجي الثاقب.

ثامنا: يؤخذ علي رؤية جمال حمدان للاستعمار خلال عصر الحروب الصليبية أنه لم يقدم لنا تصوره تجاه حركة الاستيطان الصليبي في الأراضي الفلسطينية مثلما وجدناه في صورة مستعمرات البيرة، و كفر مالك، والقبيبة، وأخزيف، وغيرها وهي زاوية على جانب كبير من الأهمية عكست لنا حرص الصليبيين على إيجاد دروع بشرية محددة و مركزة في مناطق مواجهة المسلمين و تقوم بزراعة الأرض من جانب أوربيين أحرار خاصة في مناطق الضفة الغربية لنهر الأردن حيث أكبر مخزون للمياه الجوفية في فلسطين ومع ذلك فمن الإنصاف القول بأن المادة العلمية التي طالعها في ستينيات القرن الماضي لم يكن توصل فيها مؤلفوها إلي زاوية الاستيطان الصليبي إذ أن تلك الناحية اهتم بها باحثون إسرائيليون من أجل دعم الحركة

الاستعمارية الصهيونية في فلسطين، كذلك فإن جمال حمدان مفكر جغرافي استراتيجي ومن الخطأ البين مطالبته أن يكتب لنا كمؤرخ محترف ومتخصص عن تلك الزوايا التي لم تكن مطروقة حينذاك. ذلك عرض عن الحروب الصليبية كظاهرة استعمارية من خلال رؤية المفكر المصري الراحل جمال حمدان (١٩٢٨- ١٩٩٣م) الاستراتيجية.

جيوبوليتيكية بناء الانسان المصري

في فكر "جمال حمدان"

الإنسان لا يعيش في فراغ، وإنما في تفاعل مستمر مع البيئة التي يعيش فيها، تلك البيئة تضم إلى جانب العناصر الطبيعية العديدة كالأرض، والبحر، والهواء،... الكائنات الحية الكثيرة والمتنوعة التي تشارك الإنسان عالمة. لذلك فإن دراسة البناء الأيكولوجي للإنسان لا يمكن أن تستكمل مقوماتها إذا هي أغفلت العلاقة بين الإنسان والطبيعة في كل زمان ومكان.

ويبدو أن الأزمة الإيكولوجية التي يعاني منها العالم الآن ترجع في حقيقتها إلى خرافة وأسطورة سيطرة الإنسان على الطبيعة ومجريات التجدد والنمو فيها. حيث أدى تجاوز الإنسان في إهدار موارد البيئة وإخضاعها لسيطرته وتجاربه - بدون محددات ومعايير تحدد الأسلوب الأمثل لاستثمار مواردها - إلى خلق الوضع الخطير الذي يهدد العالم كله الآن خاصة دول العالم النامي التي لم تنل حظها من التقدم والتفكير والإبداع.

وإذا كان علم الإيكولوجي يهتم بدراسة الأفراد الذين يعيشون في بيئة واحدة والوقوف على مبلغ نشاطهم وتعاملهم مع عناصر البيئة المحيطة ، فإن البناء الإيكولوجي للإنسان المصري لابد وأن ينطلق من مقومات البيئة المصرية مبرزا خصائصها وتميزها وتفردها وكذا مشكلاتها التي قد تعوق حركة الإنسان المصري وتقدمه.

ويبدو أن عالمنا الجليل "جمال حمدان" ثم يغفل هذه البيئة ولم يهمل تناولي خصائصها ويبرز تفردها وتميزها ، الأمر الذى ييسر

حسن استقراء الأبعاد الرئيسة التي نستطيع من خلالها أن نحدد ملامح البناء الإيكولوجي للإنسان المصري في كتاباته خاصة موسوعة شخصية مصر.

والدراسة الإيكولوجية يدور حولها خلاف من حيث موقعها من الدراسات التي نيت بدراسة أشكال الحياة أو البيئة أو الإنسان، والشاهد على ذلك ما تدعيه علوم تمثل البيولوجيا ، والجغرافيا ، وعلم الاجتماع .... من انتماء الإيكولوجيا لها، سواء كمجال متخصص من مجالات البحث ، أو كمدخل من مداخل الدراسة. ولا يقتصر الأمر على مش تباين وجهات النظر حول طبيعة الدراسة الإيكولوجية من جانب المشتغلين بهذه العلوم فحسب، بل يزداد الخلاف حدة داخل نطاق كل علم على حده. وهذا يدل على أن الدراسة الإيكولوجية رغم اختلاف انتماءاتها تعتمد بدرجة أو بأخرى في معالجتها لموضوعها الواسع على ما تقدمه هذه العلوم من معارف وأفكار، أو نظريات ، كما تقدم في الوقت ذاته من المعارف والأفكار ما يرتبط على نحو مباشر باهتمام كل علم من هذه العلوم (بيولوجيا النبات والحيوان، الفسيولوجيا، والجيولوجيا، الفيزياء، الكيمياء بأنواعها، الالكترونيات) هذا بالإضافة إلى ارتباطها بالعلوم الإنسانية (الجغرافيا والانثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، وعلم الديموجغرافيا، والعلوم السلوكية).

ودراستنا للبناء الإيكولوجي للإنسان المصري يستتبع ضرورة دراسة بيئة المجتمع المصري بكل عناصرها. وفي هذا يرى البعض إنه إذا حللنا مجتمعنا بشريا إلى عناصره الأولية من الناحية الإيكولوجية، نجد أنه نتاج لسلسلة من التفاعلات بين مجموعة من

الأفراد يعيشون في بيئة واحدة، والتوجيهات والمحفزات البيئية للإنسان بشأن استثمار مواردها الطبيعية.

ويرى البعض أن الطبيعة التي تحيط بالإنسان تحكمها قوانين إيكولوجية أساسية ، تنظم علاقات مكوناتها وعناصرها بعضها ببعض ، وهي غير قابلة للتعديل والتغيير ولكنها تقبل التدخل في حدود قدراتها على التجدد. وهذه القوانين هي:

- **الكائنات الحية يعتمد بعضها على البعض الآخر.**
- **ثبات الأنظمة البيئية يعتمد على تنويع مكوناتها وتعقيدها.**
- **موارد البيئة الطبيعية محدودة.**

انطلاقا من ذلك ومن ضرورة تكوين الإنسان المصري ، وتأهيله للتعامل الحضاري مع المكان عبر الزمان ، تبرز أهمية البناء الإيكولوجي للإنسان المصري باعتبار البناء الإيكولوجي أحد مظاهر (جوانب البناء الاجتماعي ، يتكامل مع البناء السياسي والاقتصادي والثقافي... إلخ. ودراسة البناء الإيكولوجي للإنسان تقتضى دراسة البناء الإيكولوجي لمجتمعه. في ضوء ذلك يمكن دراسة البناء الإيكولوجي للمجتمع من منظورين أساسيين هما:

١- أنه بناء أو نسق كلى واحد، يتألف من أجزاء أو مكونات متمايزة متكاملة مع بعضها البعض في نفس الوقت. ومن ثم يدرس البناء الإيكولوجي من نحو مستقل عما عداد من الجوانب الأخرى للبناء الاجتماعي .

٢- أنه جزء (مقوم) من مقومات البناء الاجتماعي، ومن ثم يدرس على أنه نسق أو بناء فرعي، وذلك في ضوء علاقاته الوظيفية بالمقومات الأخرى. وسواء نظرنا إلى البناء الإيكولوجي باعتباره

نسقا كليا قائما بذاته، أو باعتباره نسقا فرعيا لبناء أكبر، فإنه في الحقيقة يتخذ مظهرين أساسيين هما:

- **التنظيم المكاني للأفراد والجماعات والأنشطة المعيشية.**
- **الرابطة الوظيفية لتقسيم العمل بين الأفراد والجماعات والأنشطة بما يضمن استمرار الحياة الاجتماعية من ناحية أخرى عبر الزمن .**

هذا ويرى البعض أن البناء الإيكولوجي يتضمن وجود مبدأين أساسيين ومتكاملين هما: مبدأ الاستمرار في الزمن ... ، ومبدأ العلاقات الثابتة المستمرة التي تقوم بالضرورة بين الجماعات المتماسكة.

نصل من ذلك إلى أن البناء الإيكولوجي أحد جوانب البناء الاجتماعي، وبالتالي النسق الإيكولوجي أحد أنساق البناء الاجتماعي هذا النسق الإيكولوجي يمثل "السياق الطبيعي لأي كائن حي، حيث ترتبط حياة الكائن الحي ووظيفته داخل النسق الإيكولوجي بعلاقة وثيقة تأخذ دائما مظهرين أساسيين":

المظهر الأول: يتمثل في موقفه الذي يحدد في ضوء العوامل الفيزيقية والكيمائية المسيطرة على النسق، ويتجسد هذا المظهر فيما يعرف باسم الموطنHabitat .

المظهر الثاني: يتمثل في وضعه أو وظيفته داخل المجتمع المحلي، ويتحدد في ضوء علاقاته بغيره من الكائنات الأخرى في كل من المجتمع المحلي والنسق الإيكولوجي في ضوء ذلك فإن النسق الإيكولوجي هو الذي يبني العلاقات بين الإنسان والطبيعة التي يعيش

فيها، محققا بذلك ارتباط الإنسان بكل من المكان والزمان. وأن هناك خصائص مميزة للنسق الإيكولوجي تتمثل في أنه:

- بناء واحد لا يتجزأ يجمع بين البيئة والكائنات الأخرى في إطار واحد يمكن من خلاله تحليل أنماط ومقومات التفاعل القائم بين عناصره.
- وبناء متكامل يتحقق من خلال عملية إشباع حاجات الكائنات الحية التي يحتويها بطريقة نظامية وشاملة.
- بناء وظيفي ويتضح من أن عمليات إشباع الحاجات الكائنات الحية تتم في ضوء الأدوار الوظيفية التي ترسمها مقومات النسق الرئيسية من أجل استمراره وبقائه.

أن دراسة البناء الإيكولوجي للإنسان يتطلب تحديد مفهوم المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان وفقا للمنظور الإيكولوجي فمفهوم المجتمع المحلي من المنظور الإيكولوجي مركب من عناصر أربعة أساسية هي السكان والبيئة والتكنولوجيا والتنظيم.

وبناء على ذلك يمكن تعريف البناء الإيكولوجي على أنه "تنظيم وحدات الأرض والسكان في كيانات يمكن تحديدها بوضوح، من خلال التفاعل القائم بين السكان بعضهم وبعض وبينهم وبين المنطقة في المكان والزمان التي يعيشون فيه".

وعلاقة السكان بالمكان الذي يعيشون فيه تحكمه مجموعة من القوى والعوامل، وقد تتفاوت "أهمية الدور الذي تلعبه هذه العوامل سواء في تحديد هذه العلاقات المكانية أو في تغيرها. فقد يكون لبعضها أهمية عامة في المنطقة ككل، وقد يكون للبعض الآخر دور محدود بحيث يؤثر فقط في منطقة دون أخرى. لقد لعب اكتشاف

الصلب وتطور وسائل النقل مثلا، دورا كبيرا في التأثير على درجة ومدى التركيز السكاني والنظامي للمجتمع الحديث، في الوقت الذي كانت فيه العوامل الجغرافية كالبحار والسهول والجبال وغيرها، على درجات متفاوتة من الأهمية فيما يتعلق بتحديد الأنماط الإيكولوجية للمجتمعات المحلية".

وبوجه عام يمكن بلورة عوامل التغيير الإيكولوجي في:

١- العوامل الجغرافية: وتشتمل على ظروف المناخ والطبوغرافية والموارد البيئية الطبيعية غير أنه مع التطور الهائل الذي أحرزه الإنسان، وبفضل تراكم المعرفة العلمية والاكتشافات التكنولوجية، في مجال التوافق والسيطرة على الطبيعية وتسخيرها لخدمته، لم تعد هذه العوامل أسبابا مباشرة للتركيبات الإيكولوجية بقدر ما أصبحت عوامل مساعدة تطور من خلالها بعض أنماط التوافق الإيكولوجي للبيئة.

٢- عوامل اقتصادية: وتشتمل على مجموعة واسعة من الظواهر، مثل طبيعة الصناعة المحلية وتنظيمها، والتوزيع المهني، ومستويات المعيشة، وظروف الرفاهية الاقتصادية... إلخ.

٣- عوامل ثقافية: وتشتمل على المواقف والاتجاهات الأخلاقية والمحرمات والمقدسات التي تؤثر في توزيع السكان وإلخدمات... إلخ.

٤- عوامل تاريخية: حيث أن البناء الإيكولوجي لأي مجتمع لا يمكن أن يكون بمنأى عن مؤثرات الماضي والتاريخ.

٥- عوامل سياسية وإدارية: وذلك كالضرائب والتعريفة الجمركية وقوانين الهجرة والقواعد التي تحكم أجهزة الخدمات والامتيازات

وبرامج تخطيط المدن والتخطيط الإقليمي، وغير ذلك من القرارات التي تصدرها مراكز القوة على المستوى القومي.

٦- التكنولوجيا : ذلك أن الأنماط المكانية تعتبر إلى حد كبير من صنع التكنولوجيا، وحينما تحدث تغيرات تكنولوجية، فإن إيكولوجيا المجتمع تمر بتغيرات مصاحبة.

وهنا ينبغي التنوية إلى أن هذه العوامل تختلف فيما بينها من حيث ما تمارسه من ضغط وتأثير من موقف لأخر. لذلك كان من مهمة هذا البحث أيضا أن يبرز ويبين مدى التأثير النسبي لهذه العوامل في بيئة المجتمع المصري حتى يتسم ورسم ملامح البناء الإيكولوجي للإنسان المصري في كتابات "جمال همدان" وفق أولويات منطقية علمية.

ويرى البعض أن التغير الإيكولوجي له مجالاته، وأيضا له عملياته الإيكولوجية التي ترتبط بن المجالات. فيحدد البعض مجالات التغيير الإيكولوجي في:

١- تغيرات في حجم المجتمع ووحداته البنائية.

٢- تغيرات في العلاقات المتبادلة بين المناطق والوحدات البنائية..

٣- تغيرات في الوضع السكاني والجغرافي للأفراد والجماعات والأنشطة.

تلك التغيرات - المجالات - ترتبط ببعض العمليات الإيكولوجية الأتية:

١- عمليات ترتبط بالحجم النسبي للمجتمع، مثل الحشد Aggregation، والتجمع Nucleation، والامتداد أو التوسع Expansion.

٢- عمليات ترتبط بتحديد الوضع المكاني للأفراد والجماعات والأنشطة مثل التركز Concentration، والتخلخل Deconcentration، والتمركز Centralization، واللاتمركز Decentralization، والعزل Segregatio.

٣- عمليات ترتبط بتغير العلاقة بين المناطق والوحدات البنائية الإيكولوجية مثل: الغزو Invasion، والتعاقب Succession، والسيطرة Dominance.

وتفيد دراسة مثل هذه العمليات في وصف وتفسير التغيرات التي تحدث في أعماق البناء الإيكولوجي، كما أنها تمثل وسائل هامة لدراسة تلك التغيرات. هذا مع العلم بأنه يجب أن ننظر لتلك التغيرات على أنها انعكاسات لتغيرات اجتماعية وثقافية وسيكولوجية، لذلك يبدو من الملائم معالجتها في ضوء علاقتها بالتنظيم الاجتماعي والخصائص الثقافية للسكان، وفي ضوء علاقة التنظيم والتغير الاجتماعي بالتغير الإيكولوجي.

وفي ضوء عوامل التغير الإيكولوجي يمكن بلورة واشتقاق أهداف البناء الإيكولوجي وسوف يتم إبراز هذه الأهداف وتفصيلها عند تناول أهداف البناء الإيكولوجي للإنسان المصري كما يبدو في كتابات "جمال حمدان".

وفي ضوء مفهوم المجتمع من المنظور الإيكولوجي والذي يضم عناصر السكان والتكنولوجيا والتنظيم والبيئة، يمكن تحديد مقومات البناء الإيكولوجي للمجتمع في:

١- القوة البشرية.

٢- الموارد البيئية.

٣- التكنولوجيا ودرجة تقدمها.

٤- التنظيم أساليبه ومجالاته.

نخلص من ذلك إلى أن البناء الإيكولوجي مفهوم يتضمن في داخله مجموعة من المفاهيم الأخرى، وأنه جزء من البناء الاجتماعي، يتكامل في ذلك مع البناء الثقافي والاقتصادي والسياسي... إلخ. وأن البناء الإيكولوجي إطار له قوانينه وأهدافه، و عوامل التي تؤثر فيه، ومجالاته القابلة للتغير وعملياته التي ترتبط بالتغيرات الإيكولوجية، وأن هذا البناء له مقومات تنبثق من المفهوم الإيكولوجي للمجتمع.

طبيعة وخصائص الإنسان المصري في فكر جمال حمدان:

يبدأ "جمال حمدان" الحديث عن الإنسان بعدة أسئلة هي: نحن المصريين، من نكون؟ ما الأصل والعرق والنسب؟ ومنذ متى ظهر المصريون كشعب وكشعبة من البشر؟ كيف يبدون اليوم شكلا، وأين يقع الإنسان المصري في العائلة البشرية؟ أيبدي المصريون من التجانس البشري مثلما تبدى مصر من التجانس الطبيعي والمادي والحضاري وغير ذلك؟.

ويربط حمدان تفسيره لطبيعة الإنسان المصري بوجود ما يسمى بالشخصية القومية ويتساءل هل هناك شخصية قومية مصرية خاصة؟ وإن كان، فما أهم أو أخص خصائصها؟، ثم أخيرا، ما هي أبرز نقط القوة والضعف في هذه الخصائص. ويرى حمدان أنه "رغم سديمية الفكر أصلا، ورغم كل ما يكتنفها من الشكوك والتحفظات المبدئية والمنهجية، تميل جمهرة المفكرين والدارسين إلى الاعتقاد بوجود الشخصيات القومية والطوابع القومية كناتج طبيعى منطقى معقول ووارد - لم لا؟ - ليتعايش وتفاعل مجتمع مع بيئة مادية وبشرية خاصة عبر تاريخ ألفي متصل ... ألا يصنع هذا كله في النهاية نمطا أو شبه نمط متميز نسبيا من الإنسان والسلوك والطبيعة والقيم والعادات المكتسبة، أو تضفي لونا عاما أغلب عليه كمتوسط أو كنموذج أكثر تواترا أو حدوثا في المتوسط - هو ما يحق لنا موضوعيا ودون تجاوز أو حرج أن نسميه الطابع القومي أو الشخصية الوطنية.

ويؤكد حمدان على أن الطابع القومي أو الشخصية القومية مكتسبة من خلال ثوابت البيئة الطبيعية وكذا موروثه من خلال التاريخ الجنسي لها، وهي بذلك متغيرة متطورة عبر العصور وليست جامدة، فيقول ولأن هذه الطوابع وتلك الشخصية مكتسبة بقدر ما هي موروثه، نابعة من الثوابت والمتغيرات الجغرافية والتاريخية الطبيعية والبشرية، فإنها بعد متغيرة متطورة عبر العصور وليست جامدة مؤبدة بالضرورة.

ويرى حمدان أن مصر تتميز بوجود شخصية قومية مصرية منفردة لها خصائصها وقسماتها المحددة بدرجة أو بأخرى، والتي يمكن التعرف عليها وقياسها بقدر أو بآخر من الدقة. ولكنه يعود ليؤكد أن نقطة الخطر هنا إنما تبدأ حين نضع هذه الخصائص وتلك

القسمات في الميزان لتقييم الإيجابيات والسلبيات فمن ناحية فإن ما قد يراه البعض إيجابيات ومحاسن قد يسمه البعض الآخر سلبيات ومثالب، وما يعتبره البعض نقط قوة وبقاء ومفاخر للشخصية المصرية قد يصمه البعض الآخر بأنه نقط ضعف وهوان.

ويرجع حمدان هذا الخلاف في الحكم والتقييم حول طبيعة الإنسان المصري أو كنية الشخصية المصرية إلى وجهات نظر ذاتية تماما كفلسفة الأخلاق، ومعنى الخير والشر والفضيلة والرذيلة والحق والباطل ومثل الجمال ومدى المثالية أو الواقعية والنظرة التفاؤلية أو التشاؤمية ... إلخ، مما يجنح بنا نحو ضفاف الميتافيزيقيا، وبنفس القدر يطفو بل يجمع بنا خارج دائرة العلم الوضعي والموضوعي. وعلى سبيل المثال ، فإذا كانت قيم العرف الدارج تضع الفضيلة بطبيعة الحال كنقيض الرذيلة، فإن بعض الفكر الفلسفي - نيتشه مثلا - يرى أن الفضيلة عجز، مثلا آخر ، فبينما يرى واحد كوبا نصف ملآن، يراه أخر نصف فارغ. كذلك ففي حين يعتبر البعض خير الأمور الوسط، يذهب البعض إلى أن شر الأمور الوسط... إلخ.

ويذهب حمدان إلى أنه لا مقياس ضابط للقيم وبالتالي فالقيم متغيرة لا مقياس - يعنى - للقيم ، ولا ضابط للمقاييس، وبالتالي لا نهائية في الأحكام، بل لا أحكام على الاطلاق. وبالتالي يرجع حمدان اختلاف الرؤى الفلسفية في الحكم والتقييم حول طبيعة الإنسان إلى:

أ- مشكلة النظرة الذاتية الفلسفية.

ب- مشكلة المصلحة الذاتية.

الأولى يفسرها الفقرتين السابقتين، والثانية يعتبرها حمدان الأخطر فهي بدورها تجسد العلاقة العكسية بين المصلحة والدعوة ....

فإن أشد المنتقدين لنقاط الضعف والسلبيات في الشخصية المصرية هم عادة أشد الوطنيين المصريين الممتازين طموحا وإخلاصا ... ومن الناحية الأخرى فلقد كان على رأس الراضيين عن تلك السلبيات والعيوب والساكتين عليها بل والممجدين لها، أولئك المنتفعون بها... إلخ.

وعلى ضوء ذلك يرى حمدان أن مشكلة المشاكل في دراسة الشخصية المصرية هي تحديد طبيعتها وخصائصها الأساسية. فابتداء، ليس هناك اتفاق على الطبيعة العامة لتلك الشخصية، ففي حين يراها البعض واضحة سهلة سلسة كأشد ما يكون الوضوح والسهولة، يراها البعض متناقضة للغاية إلى حد ديالكتيكى تقريبا. كذلك يختلف تحديد خصائصها ويتفاوت بحسب الأسس والمقاييس المختلفة، كما أنها هي نفسها تتداخل وتتشابك في الواقع بصورة قد تكون مربكة بعض الشيء تصنيفيا، حيث تختلط الفروع والأصول أحيانا، وبفتح الرئيسي على الثانوي، أو السطحي على الجوهري، بلا فواصل قاطعة أو قواطع فاصلة وهكذا. ومن ثم يتعذر تحديد المفاتيح الأساسية للشخصية المصرية.

ورغم ما قرره حمدان من صعوبة تحديد المفاتيح الأساسية للشخصية المصرية يعود ليؤكد أن الاعتدال صفة جوهرية أصيلة في الشخصية المصرية، فيقول ليس من قبيل التطرف أو التبسيط ولا هو بالتأكيد من باب الوهم أو التسطيح أن نعد التوسط والاعتدال من أبرز السمات العامة الأساسية في شخصية مصر والشخصية المصرية. فالوسطية والتوازن سمات رئيسة عريضة في كل جوانب الوجود المصري تقريبا، الأرض والناس، الحضارة والقوة، الأخذ والعطاء ... إلخ.

ويرى حمدان أنه إن يكن التوسط صفة جوهرية في شخصية مصر فإن الاعتدال من جانبه أدخل في الشخصية المصرية. التوسط دراسية في عبقرية المكان ولكن الاعتدال دراسة في عبقرية الإنسان. التوسط دراسية في روح مصر، أما الاعتدال فدراسة في روح المصري. وبعبارة أوضح، إذا كان التوسط ألصق بالأرض المصرية، فان الاعتدال يتصل مباشرة بالإنسان المصري نفسه، نفسيته، عقليته، أخلاقياته، شخصيته، خامته ومعدنه، جوهره وروحه... إلخ. أي تلك الجوانب الداخلية (الجوانية) الدفينة والدخائل الغائرة الخفية غير المادية غير المنظورة أو الملموسة بصورة مباشرة.

ويؤكد حمدان على أن دراسة الشخصية المصرية هي في واقعها وجوهرها دراسة في الذات المصرية والنفس المصرية، في الروح المصري والمزاج المصري. وهذا ما يدخل أو يعود بنا على الفور إلى مجالات علم النفس الاجتماعي والأنثروبولوجيا الاجتماعية والأخلاقيات الجماعية Collective Ethology ونظرية الأمزجة والبيئات وقضية الطوابع القومية National Character والشخصية القومية ... هنا بالطبع موطن الخطورة ولب المشكلة، فإذا لم تكن بعض جوانب ونواحي مثل هذه الدراسات موضع شك في وجودها أصلا أو في جدواها فعلا من الوجهة الأكاديمية، فإنها أساسا دراسة غير موضوعية غير محايدة وإنما شخصية انطباعية متحيزة بمعنى أن ليس لها مقياس ولا ضابط علمى محدد صارم خارج الإنسان ومستقل عنه.

في ضوء ما سبق يمكن بلورة رؤية "جمال حمدان" لطبيعة الإنسان المصري، بأنه ذات طبيعة معتدلة تجمع بين الخير والشر وبين الجبر و الاختيار وتجمع في تكوينها بين الوراثة والبيئة.. كل

ذلك في تكامل رائع قد لا يوجد في طبيعة بشرية أخرى، وأن هذا ما قد يعتبره البعض تناقضا، ولكن حمدان يعتبره تكاملا بين جوانب الإنسان المصري. يوصف المصري بمتناقضة غير عادية إن لم تكن محيرة بين سهولة الانقياد والخضوع للحاكم في مجال السياسة في الداخل، وبين الشجاعة الوطنية الفائقة والصلابة العسكرية النادرة في مجال الحرب في الخارج، ولقد يرى على العكس أنه لا تناقض حقيقي بين الصفتين بقدر ما هما متكاملتان، بمعنى أن العوامل والظروف التي جعلته سهل الخضوع للحاكم يفضل السلامة في الداخل هي نفسها التي جعلته مقداما فدائيا بالغ الجرأة والشجاعة في القتال في الخارج.

وبالطبع تلك العوامل منها ما يتعلق بطبيعة البيئة التي نشأ فيها الإنسان المصري وتربى على قسماتها وتعرض لمخاطرها وتعرض هو وهي لمخاطر عديدة من الغزاة، ومنها ما يتعلق بذاتية الإنسان المصري نفسه ومن تأصيل صفة الاعتدال في بنيته وجوهره وسلوكه وانفعالاته

ودراستنا لطبيعة الإنسان في فكر حمدان لا تستكمل مقوماتها إذا هي أغفلت التعرض لخصائص هذا الإنسان عنده فلقد حاول حمدان حصر أهم الصفات والسمات والخصائص والمقومات التي وردت وألحقت أو ألصقت بالشخصية المصرية....، وتوصل حمدان إلى أنها قائمة مربكة بقدر ما هي مقلقة فادحة، وتوصل إلى بعض خصائص أساسية هناك شبه اتفاق عليها، سنتوالى الحديث عنها آنفا.

ويرى حمدان أن تقييمنا الذاتي لشخصية مصر والشخصية المصرية يخضع للتنبؤية الحادة العنيفة بحسب المتغيرات العابرة من انتصارات أو هزائم بحيث نتردد أو تتردي من النقيض إلى النقيض المطلق فنحن نضخم من ذاتنا إلى حد السخف، ونكاد نؤله مصر حين

ننتصر، بينما ننهار ونكاد نسب أنفسنا عند أول هزيمة أو انكسار. أو لعلة العكس أحيانا من قبيل التعويض.... نحن معجبون بأنفسنا أكثر مما ينبغي وإلى درجة تتجاوز الكبرياء المرضى. ونحن نتلذذ بممارسة عبادة الذات في نرجسية تتجاوز العزة الوطنية المتزنة السمحاء إلى النعرة الشوفينية الساذجة البلهاء. حتى عن مستقبل مصر نحن إما متفائلون بإسراف يدعو إلى السخرية والإشفاق، أو متشائمون إلى حد متطرف قابض للنفس .... فنحن كشعب - لابد لنا بصراحة أن نعترف - لا نحب فقط أن نمجد ونطرى أنفسنا بحق وبغير حق، ولكننا أيضا نحب أن نسمع عن أنفسنا ما يرضينا ويعجبنا أو يرضى إعجابنا بذاتنا الوطنية وشخصيتنا القومية.. أنه مركب عظمة بكامل أبعاده وبكل معنى الكلمة. وهذا مقتل حقيقى كامن للشخصية المصرية. فمن المحقق الذي لا يقبل جدلا أو إلحاحا أن كل مركب عظمة فعلي أو مفتعل إنما هو مركب نقص مقلوب Inverted Inferiority Complex) أنه تعويض مريض عن شعور هو أصلا مريض أكثر: شعور بعدم الثقة، بالعجز والقصور، باليأس والضمور والإحباط والانحدار... إلخ .

وبالتالي يقرر حمدان أن عيوب الشخصية المصرية خطيرة وليست بالهينة أو الشكلية، فهي التي أوردتنا مورد التهلكة في الماضي ووسمت أو وصمت وسودت تاريخنا بالعبودية للطغيان في الداخل دائما وللاستعمار في الخارج غالبا، وهي التي تحدد حاضرنا بنفس الشكل بالخضوع للديكتاتورية الغاشمة في الداخل وبالركوع للعدو الأجنبي الغاصب في الخارج.

خصائص الشخصية المصرية عند حمدان:

يرى حمدان أن هناك شبه اتفاق على بعض خصائص أساسية تعد أركان أو أقطاب تلك الشخصية: أولها دائما التدين، وثانيها حتما المحافظة، وثالثها استمرار الاعتدال، ورابعها غالبا الواقعية، وخامسها أحيانا السلبية وبهذا الشكل تبدو السلسلة كمتوالية تنازلية إلى حد ما، تندرج نسبيا من الموجب إلى السالب أو من القوة إلى الضعف، وبذا أيضا تتداعى منطقيا فيما بينها بحيث تؤدي كل واحدة منها إلى تاليتها ، التي تترتب بدورها على كل سابقاتها.

ويرى حمدان أن خاصية الاعتدال بالذات تمثل منطقة الوسط والارتكاز بين تلك الخصائص والنواة النووية في قلبها، لذا فمن قبيل اليسر والتبسيط أن تتخذ منها المظلة الجامعة والعنوان الرئيس العريض الشامل لها جميعا.

١- التدين: سمة مصرية أصيلة وقديمة قدم الأديان، بل سابقة هي للأديان، ولعلها هي التي منحت المصري قوة داخلية ومقاومة خارجية وصلابة غير عادية ضد الكثير من الأخطار والمحن والمآسي التي تعرض لها عبر التاريخ، سياسية كانت أو اجتماعية، خارجية أو داخلية..... فهي من الصفات التي تبدو عريقة القدم والجذور في التاريخ المصري، ويكاد يجمع الكل بلا تردد على التصاقها الشديد بالإنسان المصري عامة والفلاح المصري خاصة.

٢- المحافظة: وتعني أن المصري مقيم على القديم والتراث والتقاليد والموروثات، ولا يقبل على الجديد بسهولة، وهذا يعني بدوره أنه تقليدى مقلد، غير ثورى غير مجدد... ومن المحافظة وعدم الثورية

يكون الاستقرار، فالاستقرار نتيجة المحافظة، ولكنه بالمقابل يعود فيدعمها ويؤكد على القديم وعدم التجديد .

٣- الاعتدال: صفة مركزة في طبيعة الإنسان المصري، يبتعد به عن التطرف الشديد يمينا ويسارا، يبتعد به ضمنا وديالكتيكيا ولحسن الحظ عن التطرف في المحافظة، بذلك يوفر هامشا معقولا من المرونة والتلاؤم والتغيير والحيوية التي تضمن له على أقل تقدير القدرة على التطور البطيء، التطور خطوة خطوة... وبحكم الاعتدال، كان المصري العادي أو المتوسط أميل في الغالب إلى الوداعة والهدوء والدماثة والبشاشة، وإلى الشخصية الاجتماعية الودودة السلسة السهلة المنطلقة Extrovert غير المنغلقة أو المعقدة .. إلخ.

٤- الواقعية: الإنسان المصري رجل عملى، علمته البيئة والتجربة - أي الجغرافيا والتاريخ، احترام الواقع والالتصاق به وعدم الانفصال عنه أو التناقض معه. فهو إلا في القليل النادر لا يهرب من الواقع سواء بالتدين المفرط "الدروشة "أو بأحلام اليقظة والتمني (الغيبيات) أكثر كثيرا ما يتصادم معه ويتحداه.. ومن هنا تأتي شهرته الواسعة في السخرية التعويضية والتعويض بالتعرض بالواقع دون التعرض له، وهو بدوره التناقض الخفيف الذي أفضى به في نظر البعض إلى الشخصية الفهلوية Smart التي تعوض من عجزها العملي بالتذاكي المفرط Smarting واصطناع اللامبالاة أو ادعاء الحلم والتخفي وراء العقل والتعقل .. إلخ

٥- السلبية: تعد السلبية المحصلة النهائية لتلك المتوالية التنازلية، من التدين إلى المحافظة إلى الاعتدال إلى الواقعية، فالشخصية المصرية بذلك هي منطقيا شخصية سلبية نوعا أكثر منها إيجابية، فالمصري العادي أو المتوسط في أغلب الآراء يتجنب الصدام ويتحاشاه لاسيما

الصراع في المواقف العدائية، وبالتالي يؤثر السلامة على المواجهة، والسلام على الصراع، وفي النهاية السلم على الحرب، ومن هنا، إلى جانب رد فعله السلبي الساكن إزاء القهر الحاكم أو الطغيان الحكومي، جاءت التهمة الموجهة إليه منذ أقدم العصور إلى اليوم ابتداء من الإغريق حتى العدو الإسرائيلي بأنه شعب غير محارب، صحت هذه التهمة أو لم تصح.

رابعا: أبعاد الأزمة الإيكولوجية للإنسان المصري عند "جمال حمدان":

تبين من خلال دراستنا لماهية البناء الإيكولوجي، أنه جزء أو مقوم من مقومات البناء الاجتماعي، ومن ثم فهو يدرس على أنه نسق أو بناء فرعي في ضوء علاقاته الوظيفية بالمقومات الأخرى.

والبناء الإيكولوجي يتحقق من خلال العلاقات الوثيقة المتبادلة بين الإنسان والبيئة عبر الزمان والمكان. أي أن فعالية البناء الإيكولوجي تكون في ذروتها عندما يتحقق ارتباط الإنسان بالمكان عبر الزمان. وبالتالي فإن دراسة البناء الإيكولوجي للإنسان المصري عند "جمال حمدان" لا يمكن أن تستكمل مقوماتها، إذا هي أغفلت التعرف على أبعاد الأزمة الإيكولوجية التي تواجه الإنسان في المجتمع المصري.

ولقد رصد "جمال حمدان" مجموعة من المشكلات المتفاقمة: أزمة في الاقتصاد، المشكلة السكانية، التلوث، التجريف، التصحر، مشكلة المياه... تلك المشكلات في مجموعها تشكل وتبلور أبعاد الأزمة الإيكولوجية التي تواجه الإنسان في المجتمع المصري.

ولقد تبين - من خلال تحليل فكر حمدان - أن الأزمة الإيكولوجية للمجتمع المصرى مترامية الأطراف، متعمقة في بنية المجتمع المصري، وفي اتجاهات نموه. تلك الأزمة التي يواجهها المجتمع

المصري في إطارها الإيكولوجي لا يتناولها حمدان بعيدا عن الأطر الأخرى السياسية، والاقتصادية، والثقافية،... وغيرها. فحمدان يتصف بالرؤية الشاملة المتكاملة لكل قضايا المجتمع المصرى. فهي نتاج نشاطات الإنسان المتعددة في التعامل مع البيئة المحيطة. وتلك الرؤية التكاملية في فكر حمدان تنبع من نظريته الأساسية التي بناء عليها يجسد قوة شخصية مصر وروح مكانها، وكذا أزماتها وتطلعاتها... تلك النظرية التي تقوم على الموضع والموقع، فكما أن التجانس في شخصية مصر خاصية للموضع، فإن تعدد الأبعاد في كيانها وظيفة للموقع.

ويمكن بلورة ملامح الأزمة الإيكولوجية للإنسان المصري عند "جمال حمدان" في:

١- النمو السكاني المتزايد:

يرى حمدان أن مشكلة الزيادة السكانية واحدة من أخطر ملامح الكيان المصرى المعاصر، إنها المشكلة الأم أو المشكلة المفتاح، التي تكمن أصابعها خلفي أي مشكلة نوعية في حياتنا اليومية أو القومية، ابتداء من عمالة المثقفين إلى رغيف الخبز إلى المواصلات المحلية في مدينة، إلى إسكان أسرة على المستوى الفردي، إلى بالوعة الاستهلاك المتزايد إلى معوقات التصدير.... إلخ، حتى يصح أن نضعها قاعدة عامة في كل مشاكلنا، فتش عن السكان، والمشكلة، بعد، وعرة معقدة بقدر ما هي شاملة مركبة، فحسبها بيولوجي بالطبع، ولكن جذورها في الاقتصاد، بينما مناخها الاجتماع.

ويشخص حمدان المشكلة السكانية تحت عنوان سباق السكان والموارد مستخدما عناوين الفرد والأرض، الفلاح والأرض، الكفاية

الغذائية، اتجاه الدخل، وينتهي إلى تشبيه سباق السكان والموارد بسباق السلحفاة والأرانب، حيث تمثل السلحفاة الموارد، والسكان ينتمون في زيادتهم إلى الأرانب.

ويحدد حمدان أعراض المشكلة في العمالة والبطالة، الريف والزراعة، المدن والتحول المهني، هجرة العقول، دولة الموظفين، مستوى المعيشة، التغذية والمركب الغذائي، الصحة والمركب الباثوجينى.. وفي النهاية يقرر أن لب المشكلة (.. أناس أكثر مما ينبغي... من نوعية أقل مما ينبغي...).

٢- الفجوة الغذائية:

حيث يقدر "جمال حمدان" حجم الفجوة الغذائية في مصر مما يعادل المساحة المزروعة فعلا، أي أن مصر تحتاج إلى مساحة زراعية تعادل مساحتها الراهنة، كى تسد فجوة عجزها في الإنتاج الزراعي. ويرجع حمدان هذا العجز في الإنتاج الزراعي إلى عوامل متعددة يحددها بعنوان الفاقد الغذائي أو فاقد الإنتاج الزراعي، ويعدد أسباب الفاقد بداية من سوء التخزين، القوارض، لصوص البشر... وبصورة عامة جامعة يقدر حمدان الفاقد الغذائي والزراعي مما يغطى الإنتاج المحلي والمستورد على السواء، فالأول... يضيع منه ويتلف ١٠% على الأقل، ويقدر فاقد الحبوب بقرابة المليون طن، والقصب مثلها، و جملة المحاصيل الغذائية النباتية بحوالي ٣,٨ مليون طن، أما الإنتاج الحيواني والسمكي، فلا يقل فاقده عن نصف مليون طن، وبهذا تبلغ جملة فواقد مصر من الإنتاج المحلي قرابة ٤,٣ مليون طن سنويا، بخلاف قيمة النواتج الجانبية والثانوية لتلك المحاصيل، عدا الواردات الغذائية ... التي لا تفلت هي الأخرى من الفاقد والتبديد.

٣- الانفجار الاستهلاكي:

يعبر الانفجار الاستهلاكي عند "جمال حمدان" عن فقدان مصر للكفاية الذاتية ولا سيما الغذائية، حيث يرى أن مصر قبل الخمسينات كانت تتمتع بالكفاية الذاتية في معظم محاصيلها مع فائض قل أو كثر للتصدير، ولكن منذ الخمسينات بصورة طفيفة، ثم عبر الستينات بصورة مثيرة للقلق، ولكن دون أن تكون مشيرة إلى الخطر، ثم أخيرا في السبعينات بصورة أخطر من مأساوية وأسوأ من انقلابية، فقدت مصر كلية ميزة الكفاية الذاتية ولا سيما الغذائية، وفقدت إلى الأبد الأمل في العودة إليها، إذ تحولت إلى دولة مستوردة للغذاء نباتيا وحيوانيا بصورة مخيفة حقا رغم إننا ما نزال دولة زراعية أساسا، بل إننا كما نستورد غذاء الإنسان، أصبحنا نستورد غذاء الحيوان والنبات، أعني الأعلاف والأسمدة.

ويرى حمدان أن أبرز أعراض الأزمة الاقتصادية التي يعيشها المجتمع المصرى هو الانفجار الاستهلاكي، فإن لم يكن الاستهلاك هو المسئول بعامة عن شيطنة bedevil الاقتصاد المصرى، فإن الاستيراد هو المسئول بخاصة عن سرطنته، فإذا ما عدنا إلى نمط الاستهلاك بشيء من التفصيل، فإن الإنفاق الحكومي ابتداء استعراضي، تحكمه مركبات العظمة والغرور الكاذب، فبدعوى الكرامة الوطنية يحاكي جهاز الدولة نظراءه في أكبر وأغنى الدول، في حين أن الدولة نفسها لا تعدو كسرا عشريا وربما مئويا في القوة والحجم والوزن السياسي والمادى.

٤- الأزمة الاقتصادية الطاحنة:

حيث يعبر حمدان عن أزمة الاقتصاد المصري وقتها بأنها أزمة طاحنة خانقة كعنق الزجاجة تكاد أعراضها تتمثل وتتغلغل في كل جوانب ونواحي الحياة الوطنية واليومية، ولا يكاد يبدو لها على الأفق القريب نهاية أو حلا، والواقع أن مصر برمتها قد أصبحت مشكلة من مشاكل، أي مشكلة عظمى واحدة ... وعلى الأقل فإنها إحدى الحالات القليلة من دول العالم الثالث التي تزداد تخلفا وتأزما. ويصف حمدان تلك الأزمة بأنها كومة معقدة من الخيوط المتشابكة ... ويحصرها في خمس مشكلات محددة هي :

- الانفجار الاستهلاكي.
- التضخم
- الديون الخارجية
- المرافق والخدمات
- الغلاء

٥- مشكلة المياه:

يرى " جمال حمدان " أن هناك مجالا للتوسع الزراعي لزيادة الإنتاج واستغلال أجزاء من الصحراء ولكن يعود فيؤكد أن كل ذلك يتوقف برمته على توافر الماء فإمكانيات التوسع الأفقي - من التخطيط الزراعي - وظيفة مباشرة لموارد المياه المتاحة، وفي ظل اسراف الري الخطير الذي تعاني منه زراعتنا، فإن هناك ما يشبه العلاقة العكسية بين إمكانيات التوسع الأفقي، وبين الإفراط المائي، ولا نقول بين التوسع الأفقي والتوسع الرأسي، فلعل الأخير نفسه ضحية هو الأخر للإفراط المائي.

ويؤكد على أن الفاقد من الري الراهن لو أحسن استغلاله لترجم إلى إمكانيات ضخمة من التوسع الأفقي، بل ويذهب إلى حد القول بأن ترشيد موارد المياه المتاحة لنا حاليا يمكن أن يزيد من إمكانيات التوسع الأفقي بنسبة مؤثرة للغاية.

٦- معوقات تكثيف الأرض (التكثيف الزراعي):

حيث يعبر حمدان عن التكثيف الزراعي أي مدى تكثيف الإنتاجية في وحدة المساحة، ويؤكد أن الزراعة المصرية على درجة عالية من التكثيف، دفع إليها ضيق المساحة المتاحة في الوادي والدلتا معا ... وأن الأرض المصرية تكثفت عبر تاريخها إلى طابقين من الزراعة فوق القطعة الواحدة.... والمطلوب الآن تكثيفها إلى ثلاثة طوابق (ص= ٣ ، س =١٨ مليون فدان) حيث ص تساوى التكثيف، وس تساوى جملة المساحة المزروعة بها ... ولكن يؤكد من خلال حديثة على أن ثمة مجموعة من المعوقات التي تعوق مضاعفة التكثيف الزراعي الآن تتمثل في ثلاثة معوقات رئيسة هي:

- وباء التجريف
- التصحر
- القوارض الداخلية

ويعبر حمدان عن مجموعة هؤلاء الثلاثة بمصر المنكمشة.

٧- أزمة مكان (الصراع من أجل المكان):

حيث يرى حمدان أن مصر الصالحة للاستثمار والتعمير... مجرد رقعة محدودة متواضعة في النهاية... تبدو من الجو كمجرد نشع لنهر النيل لا أكثر، فبينما تبلغ مساحة الوطن السياسي نحو ٢٣٨ مليون

فدان، لا تعدو المساحة المستغلة بالفعل ٦,٣ مليون فدان، والمساحة المأهولة عموما نحو ٨,٥ مليون فدان، والمساحة الصالحة للاستغلال في المدى المنظور نحو ١٠ ملايين ... أي أننا نعيش حاليا على ٣-٤-٥ % على الأكثر من رقعة الوطن... أزمة مصر الحقيقية إذن هي دائما وفي التحليل الأخر أزمة مكان: الرقعة محدودة مختنقة، هامش النمو والتوسع فيها ضيق للغاية، والأرض شبة متناهية شبة مغلقة. الضيعة الوطنية، باختصار: محددة المساحة، من هنا كانت مشكلة المكان مشكلة حادة خانقة بل ورهيبة.

٨- الهجرة (الداخلية والخارجية):

عبر "جمال حمدان" عن مشكلة الزيادة السكانية بأنها أم المشكلات وأخطر ملامح الكيان المصري المعاصر... ويحدد مغزي هذه المشكلة في الكثافة المفرطة ... وليس تركيبها الديموجرافي بصفة خاصة... ومن عوامل الكثافة السكانية عند "جمال حمدان" هي الهجرة بأنواعها الثلاثة التي يحددها حمدان في الهجرة الداخلية والهجرة الخارجية والهجرة الداخلة.

ويرى حمدان أن الهجرة الداخلية أي بين مناطق مصر ذاتها، ظاهرة قديمة ومستمرة، وقد تمثل الحل الطبيعي للكثافة، حيث تؤدي إلى إعادة توزيع السكان بين مناطق مصر بصورة حرة وتلقائية، وتبعا لقوى الطرد والجذب، ويؤكد أنها أفرطت بحيث أدت إلى تركز حضاري مفرط، ونجم عنها ترييف المدن... إلخ. أما الهجرة الداخلة، حيث يرى حمدان أن مصر لم تصدر الرجال بقدر ما كانت تصدر الحضارة وأعمالهم، بل وكانت بانتظام مصبا لهم، فلم تكن مصر منطقة هجرة خارجية، على العكس كانت منطقة هجرة داخلة، فبقدر ما كانت منبعا للحضارة، كانت مصبا للبشر...، أما الهجرة الخارجية، فيرى حمدان

أنها ظاهرة حديثة فرضت نفسها وهي شديدة البروز ومؤثرة... ويحدد حمدان السمات الأساسية تاريخيا في تركيب الهجرة في مصر في الآتي:

- الهجرة الداخلية بين أجزائها المختلفة.
- كثافة الهجرة الداخلة.
- ضعف الهجرة الخارجية.
- قوة الهجرة الداخلية.

٩- الاستعمار (الطغيان الخارجي):

حيث يرى حمدان أن مصر لم تستغل موقعها الفريد كما ينبغي وركزت أساسا على الموضع، ولو فعلت فلربما تغير تاريخها وشخصيتها بعد ذلك، أي أن الانطواء الزراعي القانع داخل قوقعة الموضع، كان من عوامل استمرارية الأتوقراطية واستشراء طغيانها ... ويفسر الطغيان الداخلي، وقوع مصر المتكرر الطويل تحت سيطرة الاستعمار، فحين ينهزم النظام، تسقطه مصر، وتستبدل طغيانا بطغيان، بل وسرعان ما يتحالف الطغيان الخارجي مع الداخلي في معظم الأحيان، (تحالف الأتراك مع المماليك)... وبالتالي يؤكد حمدان أن مصر عاشت دائما بفعل الاستعمار (الطغيان الخارجي) في خطر داهم من خلال موقعها الاستراتيجي وأن هذا الاستعمار خاصة البريطاني كانت له آثاره السلبية على نمو المجتمع في كل الميادين.

١٠- مشكلة التلوث:

يرى حمدان أنه رغم أن الريف المصري في السنوات الأخيرة فقد، مقابل بعض فقرة وخوائه، الكثير من سلامه الهادئ وهدوئه الناعس، فإنه مازال بعامة بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة، فما أن

تدلف إلى أقاليم الريف من شمال أو جنوب وتدخل نطاق القاهرة الكبرى، حتى تتوالى وتتصاعد أشكال التلوث المختلفة: الضوضاء، روائح الصرف، الجو، ومظاهر التلوث هذه تعلن عن قرب العاصمة قبل الوصول إليها وقبل أن تعلن عن نفسها مباشرة، حتى لتبدو كشعار العاصمة الجديد المعلق عليها باستمرار، فمن محصلة التكدس السكاني والعمراني، وتدفق النقل الميكانيكي في الداخل، مع اختفاء أو انتفاء الخضرة والمساحات الخضراء، ثم الحصار الصناعي المحكم من الخارج، ارتفعت نسبة التلوث في جو القاهرة إلى أكثر من معدل الأمان المسموح به دوليا... فمثلا بلغت تركيزات دخان عوادم السيارات بما فيها عنصر الرصاص بشوارع وسط القاهرة (١٠) أمثال المتوسط العالمي، تتزايد أيضا بنسبة ٧% سنويا بينما هي تتناقص بمعدل ٥% في المدن الأمريكية. ١١

١١- فقر الموارد الطبيعية والحيوانية :

حيث يرى حمدان إنه إذا بدأنا بالأساس الجغرافي في دراستنا للمجتمع المصري نجده مجسدا وواضحا تماما في فقر الموارد الطبيعية نوعا، ومحدودية الرقعة الزراعية شبه الثابتة، لا سيما إذا قورنت بحجم السكان الضخم، حيث يبرز عدم التناسب ... فتتخذ الأزمة البعد السكاني بلا جدال فأزمة مصر الاقتصادية الراهنة إذن جذرها في الأرض وساقها في السكان، أو قيل أن قدمها في الأرض وجسمها هو السكان. هذا بالإضافة إلى أن مصر فقيرة في مواردها الحيوانية. فيري حمدان أن مصر الجغرافية ليست دولة رعى ومراعي... والمشكلة الغريبة هنا والمزعجة حقا أن من الأوفر اقتصاديا أن نستورد ما نحتاجه من الإنتاج الحيواني... وفي سياق

آخر يحدد أن مصر إنما جعلت لتكون مزرعة دواجن عظمى Poultry farm، أكثر منها مزرعة حيوان Dairy farm.

١٢- البترول:

حيث يرى حمدان أن البترول العربي بحد ذاته وبتحويلاته... قلب كيان مصر رأسا على عقب وحتى النخاع مرتين، من الخارج ومن الداخل... أفقيا وراسيا، خارجيا: إذ قلب مكانة مصر في العالم العربي من الصدارة والعروبة والصراع إلى الصلح والعزلة والثراء، وداخليا: حيث قلب جزئيا نظام الطبقات وترتيبها الاجتماعي، فجعل بعض عاليها وسطها، وبعض وسطها سافلها، وبعض سافلها وسطها أو عاليها.

ويؤكد حمدان أن البترول العربي... ممثلا في تحويلات المصريين العاملين في دوله، فضلا عن تأثيراته وانعكاساته وعدواه ... خاصة بعد طفرة عائداته الخرافية منذ ١٩٧٣م، كان أكبر عامل خارجى منفرد أثر في الاقتصاد والمجتمع المصري مباشرة وغير مباشرة، مثلما كان أكبر عامل منفرد في توجيه - إذ إن شئت فقل تحريف - سياسة مصر الخارجية تجاه العدو الإسرائيلي، وبوضوح أكثر ... البترول العربي عامة هو أكبر سبب في انحراف السياسة المصرية، خارجيا نحو السلام، وتحويلات البترول العربي خاصة هي أكبر سبب في انحراف الاقتصاد داخليا نحو الانفتاح.

١٣- براثن الانفتاح والانغلاق:

حيث يرى حمدان أن الانفتاح، الذي يرادف الانتفاخ، قد خلق طبقة جديدة ثقيلة من الرأسمالية العاتية المستغلة والطفيلية غير المنتجة في أعلى السلم الاجتماعي، كما خلق طبقة جديدة منتجة ولكنها نسبيا مستغلة، أيضا في أسفل السلم من الحرفيين و الفنيين والعمال المهرة

ارتفعت من القاع بفضل تدريبهم واقتصاد السوق. حتى الفلاحين بدأوا جزئيا وإلى حد ما وبطريقة خاصة يتبرجزون، على الأقل من تداعيات وإشعاع البترول العربي والانفتاح المصري، كما كاد بعضهم في رأي البعض يتحول إلى طبقة شبه مستغلة جزئيا أو نسبيا كبعض العمال والحرفيين. وعلى الجملة فنحن الآن - في تقدير المدرسة النقدية - نتبرجز أحيانا من أعلى إلى أسفل باسم الاشتراكية ومن أسفل إلى أعلى باسم الانفتاح، أو لعله العكس أحيانا أخرى.

ويصل حمدان في النهاية إلى أن مصر فقدت طريقها إلى الاشتراكية، واختلت بوصلتها الاجتماعية طبقيا، فالانفتاح إذن هو أعلى مراحل الليبرالية والميول الرأسمالية ويصل حمدان إلى أن النموذج الرأسمالي وقمته الأمريكي ... لا يصلح لها كدولة، فالنموذج يصلح لمجتمع أو دولة الوفرة، ولا يصلح لمجتمع أو دولة الندرة مثل مصر... والحقيقة أن كلا من الانفتاح والانغلاق مطلوب مفيد، لكن المشكلة هي كيف؟ ولمن؟ الانفتاح مفيد بالتأكيد للأقلية (الساحقة)، والانغلاق مفيد بالتأكيد للأغلبية (المسحوقة). ولذلك فإن الأول تنمية ولكنها لا مفر طبقية، برجوازية واستغلال باسم الوطنية، والثانية تنمية وطنية ... ولكن للقاعدة العريقة والجماهير الأساسية، قدر موزون إذن من الانفتاح والانغلاق، ونكاد نقول بين الأيديولوجيا والتكنولوجيا... هي الصيغة الملائمة المطلوبة لمصر.

١٤- التفرقة الإقليمية (ثنائية الشمال والجنوب):

يؤكد حمدان على أن التفرقة الإقليمية في مصر بين الشمال والجنوب تعد أسوأ ظواهرها، وإذا كانت أسبابها طبيعية، تعود إلى مورفولوجيتها، فعلى حين تختلف مصر الوادي عن مصر الدلتا، إلا أن نتائجها الحضارية تعود إلى إهمال الجنوب (الصعيد) بدرجة متناهية،

ولا يعني ذلك أن الدلتا غير مهملة ... ولكن المسألة نسبية، ويدلل حمدان على ذلك بالمقاييس والأرقام والوثائق والتقارير ... ويؤكد حمدان أن نظرة عابرة إلى خريطة مصر الاقتصادية، تكشف هذا الفارق بكل سهولة، كل الخدمات والبنيات الأساسية الشبكية، إن لم تكن في الدلتا أضعافها في الصعيد أطوالا وكثافة بحكم المساحة، فإن بعضها يقتصر على الأولى دون الأخير... ويدلل على ذلك بشبكات السكك الحديدية والطرق... يصل حمدان في النهاية إلى أن الصعيد يزداد على النسبة فقرا بضغط السكان المتزايد وقلة الموارد والتنمية المتخلفة، وهما الدلتا والصعيد ضحية في نموه وتنميته لإفراط العاصمة القاهرة، ولكن الصعيد الضحية الأولى والكبرى، وبهذا التخلف - مع الموقف المتخلف - أصبح الصعيد بحق هو الإقليم الخلفي Arrierl - pays في مصر، من كل معنى ... جغرافيا وحضاريا، ماديا وبشريا، اقتصاديا واجتماعيا.

١٥- القناة ونظرية الأمن المصري لحماية سيناء:

حيث ينظر حمدان إلى التطورات أو الانقلابات التي طرأت على موقع مصر الجغرافي ودور القناة نظرة شاملة تنسج في رقعة واحدة خيوط الجغرافيا والتاريخ بالسياسة والاستراتيجية، وذلك داخل الإطار الاقليمي والعالمي في آن واحد. هذا ويؤكد حمدان على أن منذ ظهر الوجود العدواني الإسرائيلي على ضلوع مصر، وأنه سوف يعيد نفسه بالتأكيد مع كل حرب جديدة مع العدو. تلك خريطة الخطر الجديدة. وعلينا من أسف ولكن بشجاعة أن نعترف بأن القناة، ما دام الخطر قائما أو مسلطا؛ قد أصبح محكوما عليها بأن تكون أداة مؤقتة أو متقطعة، تعمل نصف الوقت أو بعض الوقت ثم تتعطل بضع سنين كل عقد أو بعض عقد ... يمكننا بسهولة أن نضعها قاعدة قائدة لا استثناء

لها ولا نقص أنه لا موقع لمصر بغير القناة، ولا قناة لمصر بغير سيناء... وأخيرا، القناة محكوم عليها بالخطر الراجع، وموقعنا يهدد أبدا وبانتظام بالإجهاض أو بالشلل الجزئي ما بقيت إسرائيل، من ثم يصبح المبدأ الاستراتيجي الأول في نظرية الأمن المصري هو دافع عن سيناء، تدافع عن القناة، تدافع عن مصر جميعا، موقعا وموضعا، حدودا وعمقا، صحراء ووديا. بل أبعد من هذا، لما كانت فلسطين وليس سيناء هي خط الدفاع الأول عن القناة، فإن دفع الخطر الإسرائيلي أو رفعة عن سيناء لم يعد يكفي، وبعبارة أكثر مباشرة، فلا أمان لقناتنا ولا ضمان بالتالي لموقعنا الجغرافي إلا بذهاب العدو، غير أن هذه قضية أخري متروكة للمدى البعيد.

١٦- الزعامة العربية بحكم الموقع والموضع:

يري حمدان أن مصر بحكم الموضع والموقع محكوم عليها بالعروبة والزعامة، ومحكوم عليها أيضا بتحرير فلسطين والنقيض لذلك هو الإعدام فيرى أن مصر لا تستطيع أن تنسحب من عروبتها أو تنضوها عن نفسها حتى لو أرادت - كيف؟ وهى إذا نكصت عن استرداد فلسطين العربية كاملة من البحر إلى النهر وهادت وهادنت وخانت وحكمت عليها بالضياع، فقد حكمت أيضا على نفسها بالإعدام، بالانتحار، وسوف تخسر نفسها ورصيدها، الماضي والمستقبل، التاريخ والجغرافيا. لكن مصر رغم ثلاثية النكبة فالنكسة فالكارثة العظمى، لا يمكن أن تركع وتستسلم للعدو تحت أي شعار زائف أو ستار كاذب. ومصر مستحيل أن تكون خائنة لنفسها ولشقيقاتها، وليس فيها مكان لخائن أيا كان موقعه... غير أن على مصر، كما على العرب، أن ترتفع إلى مستوى التحدي والمسئولية: الأولى بأن تعطى العرب قيادة عبقرية جديرة قادرة لا قيادة قميئة عاجزة خائرة، والثانية

بأن تعطى مصر كل شحنه وطاقة من القوة المادية والمعنوية تدير بها الصراع.

هذا ويؤكد حمدان مرة أخرى أن مصير مصر ومكانتها في العالم سيحددها مصيرها ومكانتها في العالم العربي، ومصيرها ومكانتها في العالم العربي سيحدده مصير فلسطين

خامسا: أسس البناء الإيكولوجي للإنسان المصري عند جمال حمدان:

البناء الإيكولوجي لأي مجتمع يقوم على مجموعة من الأسس تحدده الرؤية المستقبلية لحركة النمو والتقدم في المجتمع، وذلك من خلال ما تقترحه من ركائز ومعايير وأساليب واستراتيجيات وسبل لحل المشكلات المتفاقمة الناتجة والنابعة من تطرف العلاقة الإيكولوجية الأزلية بين الإنسان والبيئة في كل مكان عبر الزمان.

وفي المجتمع المصري أدي انحراف العلاقة بين الإنسان والبيئة إلى تفاقم مجموعة من المشكلات... التي شكلت أبعاد الأزمة الإيكولوجية للإنسان في المجتمع المصري والتي تمثلت في المشكلة السكانية ، الهجرة ، التلوث ... ، ففي ضوء أبعاد هذه الأزمة، وفي ضوء المرتكزات الفكرية التي عرضت لها الدراسة سابقا ، وفي ضوء تحليل كتاب شخصية مصر لجمال حمدان، يمكن بلورة أسس البناء الإيكولوجي للمجتمع المصري عند "جمال حمدان" فيما يلى:

١- النيل واهب وضابط الحياة في مصر:

حيث يرى حمدان أن النيل هو ضابط إيقاع الحياة في مصر وأيضا هو شريان الحياة. ويؤكد أن هناك قانونا هاما للغاية في كيان وتكوين مصر، في شكلها وتشكيلها هو أن النيل يكاد يحكم كل مظاهر العمران

بها... ويضبط إيقاعها في كثافة معينة... تقل بصورة عامة ... كلما بعدنا عنه شرقا وغربا، فكل شيء في مصر تقريبا... يميل لأن يقل وزنا وقامة وقيمة كلما بعدنا عن النهر، كثافة السكان... أحجام المدن وتباعدها، وتوزيع القرى وانتشارها، ذلك إذن هو إيقاع الحركة الأساسية في مورفولوجية مصر الطبيعية، وفي مورفولوجيتها البشرية ... أن كل قوة مصر تتركز في خط واحد محدد ... هو النيل، وما من إقليم في العالم بالتأكيد تتركز قوته في خط واحد... مثل مصر النيلية، إنه خط القوة العظمى بها في الاستقرار... مثلما هو خط المقاومة الدنيا في الحركة، وهو الذي يمنحها التجانس التركيبى.

وبالتالي فمهما تعددت الأسباب التاريخية والاقتصادية، يظل النيل بمثابة العامل المشترك بها... ولكافة تداعياتها السكانية والعمرانية، ولذا يطلق عليه حمدان النهر الجغرافي، بمعنى أن النهر لم يكون خريطة مصر المعمورة فحسب، بل رسمها وشكلها أيضا بما قدمه لها من محاور توزيعها على طول مجراه في الوادي وفرعية في الدلتا.

٢- إيكولوجية الحضارة المصرية:

(السبق الحضاري سمة أصيلة في شخصية مصر) في إطار النظرية التي تحكم فكر حمدان والتي تعبر عن أن قوة مصر تكمن في تفرد الموقع وتميز الموضع (قوة مصر = الموقع x الموضع)، يرى حمدان أن مصر تنفرد بأنها تجمع في تناسب نادر... بين قدر من العزلة في غير الموقع... وبين قدر من الاحتكاك ... لا يصل إلى حد التميع. والقاعدة الأساسية التي تحكم ذلك هو التناسق الدقيق بين أثر الموقع والموضع في مصر، فقد زاوج فيها بين العزلة والاحتكاك في زواج سعيد، أخذ من كل منهما محاسنه دون أضداده... وجعل منها

منطقة اتصال Zone of Junction ومنطقة انفصال Disjunction في الوقت نفسه، وبالتالي منطقة توصيل وتأصيل معا.

ويفسر حمدان إيكولوجية الحضارة المصرية من خلال تفاعل الإنسان المصري مع بيئته التاريخية، وكيف تعامل معها واستثمر معطياتها من النهر والمناخ والتربة، وكيف طورها من خلال الري والزراعة وتطويعها، ويؤكد على أن نشأة الحضارة في مصر لم تكن صدفة، وبغير حتم جغرافي، فالسبق الحضاري ينبعث من طبيعتها وبنيتها، أما التخلف فطارئ مؤقت، بفعل ضغوط ومؤثرات من خارجها، بدليل قدرتها الفائقة على استعادة ذاتها، وسبب التخلف فيعود غالبا إلى النتيجة المتغيرة للشد والجذب بين قوتي العزلة والاحتكاك في شخصيتها، أي الموضع والموقع على الترتيب.

ويرى حمدان أن الحضارة المصرية في ضوء نظرية الموضع والموقع مرت بأربعة مراحل متتالية هي:

١- مرحلة صناعة الحضارة: وتتفق مع مرحلة التاريخ النهري حيث كانت مصر مشتلا لتأصيل حضارة مبكرة وسابقة... إلخ.

٢- مرحلة تصدير الحضارة: وتشمل العصر الفرعوني في إبانه، حيث هيمنت ظواهر الحضارة المصرية على جيرانها، وشكلت لها نموذجا حضاريا... إلخ.

٣- مرحلة الاكتفاء الذاتي: وتلى نهاية الفرعونية وتتسم بهبوط قوة مصر السياسية واستمرار قوتها الحضارية، وهي مرحلة أصيبت فيها مصر بتصلب شرايين حضاري، أو بيات شتوي... إلخ..

٤- مرحلة استيراد الحضارة: وتبدأ مع اقتحام الحضارة الأوربية لمصر... إلى الآن.

٣- التخطيط الزراعي (منظومة إيكولوجية للزراعة المصرية):

يرى حمدان أن الأزمة الطاحنة التي تعانيها الزراعة المصرية، ترجع إلى التقصير، وعدم الافادة الكاملة من الامكانيات المتاحة طبيعيا أو بشريا أو حضاريا، لا من المناخ المثالي، ولا من السد العالي، لا من الموقع المركزي، ولا من الشهرة المتكسبة والخبرة المتوطنة. ويؤكد حمدان أن الخروج من هذه الأزمة تتطلب سرعة التخطيط الزراعة، ومع هذا يقرر يخطئ من يتوهم أن قضية التخطيط القومي للزراعة قضية سهلة يمكن حسمها بالضربة القاضية أو حتى بالنقط، فإنما هي معادلة صعبة، متعددة الأطراف والحدود والحلول كثيرا، وهوامش الأفضلية وعوامل الترجيح ونماذج البدائل فيها ضيقة للغاية. ولهذا فرغم أن الكل مجمع على ضرورة تغيير المركب الزراعي، فإن الكل مختلف على كيفية هذا التغيير وشكله ومداه.

ويؤكد حمدان على أن الغرض من التخطيط الزراعي هو تحقيق أكبر قدر من الاستثمار والاستغلال للمواد المتاحة بأكبر طريقة اقتصادية ممكنة... وعبر عن ذلك بمصطلح "تعظيم Maximization الإنتاج" ويستدعي هذا الغرض عنده تطبيق المبادئ الأساسية الثلاثة المقررة في استغلال الأرض وتخطيط الموارد عموما وهي: الاستغلال الأعظم Waximum use ، والاستغلال الانسب Optimum use، والاستغلال المتعدد multiple use، وبهذا الشكل تتحدد عناصر التخطيط الزراعي عند "جمال حمدان" في أربعة عناصر تتداعى منطقيا كما يلى:

١- تخطيط الهيكل المحصولى

٢- التوسع الرأسي.

٣- تخطيط الأرض.

٤- التوسع الأفقي.

ويصل حمدان في النهاية إلى تحديد أركان استراتيجية التخطيط الزراعي في:

أ- التكثيف، بالحد الأقصى من التوسع الرأسي.

ب- التتجير Commercialization، بالتوجيه إلى المحاصيل النقدية السوقية التجارية بدل المعاشية.

ج- التصدير، بالتوجه إلى السوق العالمية لتصريف تلك المحاصيل التجارية الثمينة.

ء- التصنيع، بالحد الأقصى من تحويل الخدمات الزراعية إلى منتجات مصنعه لتصديرها بأعلى أثمان وأرباح فضلا عن توسيع فرص العمالة داخليا، مع الحد الأدنى من تصدير المحاصيل والسلع الزراعية خاما.

٤- استراتيجية لاستخدام المياه في مصر:

ويرى حمدان أن إمكانيات المجتمع في التوسع مستقبلا في الزراعة والصناعة والكهرباء... تتوقف على موارد المياه لذا فإن ترشيد استخدام المياه من مواردها المتاحة يمكن أن يزيد بشكل كبير من إمكانيات التوسع في المستقبل. فيرى أن إمكانياتنا المائية رصيد محدود متناه، لا هي بغير حدود أو سماء، ولا عادت مصر بعيدة عن

هذا السقف أو ذلك الحاجز. ولا عن أزمة الماء في المستقبل أيضا، تلك الأزمة التي بدأ العالم يحس بها ويعاني منها جديا، حتى قيل أن القرن العشرين إن يكن قرن البترول، فإن القرن الحادي والعشرين سيكون قرن الماء. فمصر على خلاف تصور دارج، ورغم النيل الخالد والسد العالي، لا تجلس على بنك ماء قابل للنمو والتوسع إلى ما لا نهاية، وإنما هي تملك رصيدا محدودا نسبيا ومحددا بصرامة، إن يكن غير قابل للنضوب فإنه قابل للجمود، وإن عد غير خاضع لقانون النقاد فإنه خاضع القانون الندرة.

وبناء على ذلك يقرر حمدان أن التخطيط لاستخدام المياه والترشيد في الاستعانة بمواردها ضرورة بقاء وصمام أمان: هنا اقتصاد المكان وهنا اقتصاد الماء، هنا تخطيط الأرض وهنا تخطيط الماء.

وفي ضوء ذلك تتمثل استراتيجية جمال حمدان في استخدام المياه في:

- ترشيد استخدام المياه سواء في الري أو الصناعة أو الشرب
- التوسع في إعادة استخدام مياه الصرف للرى واستغلال المياه الجوفية .
- ترشيد استهلاك الزارعة وخفض استهلاكها إلى ما كانت قبل السد العالي، ويتم ذلك بضبط التوزيع من الخزان إلى الحقل وتحديد المقننات المائية واستبعاد الفاقد.
- ألا تتجاوز مياه الشرب والصناعة معا ٣ مليارات مترا مكعبا سنة ٢٠٠٠م.
- زيادة الموارد الجانبية فتشمل إضافة ٧ مليارات مترا مكعبا من مياه الصرف ونحو مليار من المياه الجوفية.

تصور حمدان لميزانية استهلاك المياه حاليا ومستقبلا
(بالمليار متر مكعب)

الاستعمال	حاليا	مستقبلا
الزراعة	٤٩,٧	٤٠,٠
الصناعة	١,٧	١,٠
الكهرباء والملاحة	٣,٠	١,٥
مياه الشرب	٣,٧	٢,٠
المجموع	٥٨,١	٤٤,٥

٥- حل جذري للمشكلة السكانية:

انطلاقا من نظرة حمدان للمشكلة السكانية على أنها واحدة من أخطر ملامح الكيان المصري المعاصر، أنها المشكلة الأم، وأنها قاعدة عامة في كل مشاكلنا... يقدم حمدان حلول أربعة. تقدم تصوره العام لحل المشكلة - هي:

أ- إعادة توزيع الدخل القومي

حيث أن إعادة توزيع الدخل القومي توزيعا عادلا من شأنه أن يخفض من الاستهلاك غير العادي وغير العادل للطبقات الغنية من ناحية، ومن ناحية أخرى يرفع مستوى معيشة الطبقات الفقيرة، بما يؤدي في النهاية إلى خفض معدلات نموها السكاني.

ب- زيادة حجم الدخل القومي

ويكون ذلك بتعظيم الإنتاج إلى أقصى حد ممكن، وليس من حق أحد أن يدعو إلي حلول اتكالية أو جراحية أو غير ذلك لمشكلتنا السكانية قبل أن يزداد ويستنفذ الحل الاقتصادي تماما.

ج- الهجرة:

يرى حمدان أن الهجرة بلا شك قد ساهمت بعوائدها في حل مشكلة السكان أو تخفيفها محليا إلى حد بعيد، وأن الهجرة تبقى للمشكلة السكانية، حلا احتياطيا مستقبليا فقط.

ء- ضبط النسل:

يؤكد حمدان على أن ليس المقصود بضبط النسل منع أو تحديد النسل حتما، ولا انقاص حجم السكان الحالي مثلا، كل ما هناك ابطاء سرعة النمو لتقليص حجم الزيادة والمشكلة، لا حجم السكان نفسه.

٦- تصحير العمران والصناعة:

حيث يرى حمدان أن قاعدة العمل التخطيطي في مصر ينبغي أن تكون الحد من نمو المدن والصناعة داخل رقعة الوادي وتجميدها على ما هي عليه. ثم تحويله إلى مراكز جديدة خارج الوادي تماما، أي باختصار الاتجاه بالعمران والتصنيع إلى الصحراء المكشوفة بعيدا تماما عن كتلة الكثافة الحالية، يكفي مدن داخل الوادي ما وصلت إليه من نمو وأحجام وما نالت من مشروعات صناعية. ولتنتقل طاقة التعمير والتصنيع إلى أقطاب جاذبية فسيحة طلقة وحرة في قلب الصحراء.

٧- مقومات الصناعة المصرية:

يرى حمدان أن شبكة الصناعة في مصر ... أشبه بشجرة والزراعة جذورها، منها بدأت وبها نمت، ومهما تعددت الجذور فستبقى الصناعات الزراعية أقدمها. ويرى حمدان أن خريطة جديدة لمصر تتخلق تحت ناظيرينا في مجال الصناعة، بقدر ما يقتحم مصر

عالم الصناعة الحديثة أن مصر تتغير صناعيا، مثلما وجدناها تتغير زراعيا، وبدلا من الصناعات المعاشية والتقليدية الأولية أو البسيطة، حلت أحدث الصناعات العصرية المتطورة، الاستهلاكية الخفيفة والثقيلة على السواء.

ويؤكد حمدان على أن مصر بطبيعتها لا تنقصها المقومات الأساسية للصناعة الحديثة وإن كانت بيقين تترك الكثير للتمني... ويرى أن مصر تمتلك أركان خمسة لقيام الصناعة هي: المادة الخام، الوقود، العمل، رأس المال، السوق. وأن تلك الأركان تتوفر بتنوع معقول بين الخامات الزراعية وبعض المعادن.

ويعود حمدان فيؤكد أن جسم الصناعة المصرية كصرح وبناء له خصائص وظيفية وتركيبية محددة تصنع فيما بينها شخصيتها وسماتها وقسماتها وتحدد نقاط قوتها وضعفها كما تشخص مشاكلها وصعوباتها، تلك الخصائص بلورها حمدان في الخصائص العشر التالية:

- **سيادة الصناعات الزراعية.**
- **صناعة استهلاكية لا رأسمالية.**
- **صناعة خفيفة لا ثقيلة.**
- **صناعة اكتفاء لا تصدير.**
- **صناعة مصنعه لا صناعية.**
- **التكامل الرأسي والأفقي.**
- **التنوع والتركز الشديدان.**
- **التركيز الحجمي**
- **التركيز الجغرافي.**
- **مناطق لا أقاليم صناعية.**

ويقرر حمدان في نهاية شرح هذه الخصائص العشر إلى أن خريطة الصناعة في مصر خريطة جديدة لها مقوماتها ... ولكنها تفتقر إلى عدالة التوزيع بين الأقاليم..

٨- تعظيم الإنتاج وترشيد الفاقد:

حيث يرى حمدان أن التغلب على الزيادة المفرطة في السكان مع محدودية الرقعة الزراعية لن يكون إلا بتعظيم الإنتاج، أي تحقيق أكبر قدر من الاستثمار والاستغلال للموارد المتاحة بأكبر طريقة اقتصادية ممكنة، سواء كان ذلك كما أو كيفا، سلعيا أو نقديا... هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ترشيد الإنفاق وإقلال الفاقد، حيث أن الفا يسخر من عملية الإنتاج نفسها، مثلما يسخر من عملية تخطيطية، قبلها وبعدها، حيث يبدو ينفخ في قربة مثقوبة.

٩- دستور يحمي استخدام الأرض:

حيث يرى حمدان أن الخطر الحقيقي يكمن في الاعتداء على الأرض الزراعية بالعمران المدني، سواء بمدنه أو بمصانعة، أو بطرقه... ويرى أنه ليس هناك مبرر حقيقي في قرانا المجددة، أعني حالة إعادة البناء والتخطيط مستقبلا لفكرة المساحات الخضراء، بدعوى الرئة الطبيعية ... لأن قطر القرية أو القرى برمته متواضع مهما تضخمت، والريف المكشوف واسع حولها إنما هو تلقائيا بغير تخطيط... ونظرية النطاق الأخضر إنما جعلت للمدن وحدها بأقطارها المترامية... على أن الأهم إنما هو التوسع الرأسي في كثافة البناء...

ويرى أنه لا تشخيص لتآكل الرقعة الزراعية وضمورها هذا يقينا إلا بالسفة الوطني (أو ضد الوطني بالأحرى). فهذه العملية الشريرة والمستشرية لا تؤدي فحسب إلى تعقيم الأرض الزراعية، أندر أصولنا

الإنتاجية جميعا، ولكن أيضا تعني تصحر المعمور، أي تحويله إنتاجيا إلى صحراء مجدبة غير مجدية ولا منتجه... نحن بكل بساطة ويا للعجب ، نستزرع الصحراء ونصحر الأرض الزراعية، نبني على الأرض الزراعية ونستصلح الأرض الصحراوية، وبدلا من تنييل الصحراء تجدنا نجد بهمة وبمطلق إرادتنا في تصحير الوادي والمعنى الوحيد لهذا أن مصر، بدلا من أن تنمو وتكبر، تنكمش وتتقلص فيزيقيا وتتضاءل وتتقزم جغرافيا.

وفي ضوء ذلك ينادي حمدان بضرورة وضع دستور يحمى استخدام الأرض في مصر، خاصة الوادي من بطش الإنسان الذي يهمل الأخضر ويهتم باليابس.

١٠- التنمية المركزية (الإقليمية محل المركزية):

حيث يرى حمدان أن القاهرة - العاصمة - تلخص كيان مصر البشري، حيث هي بحكم موقعها المركزي بين الدلتا والصعيد، تستمد سكانها بتوازن معقول من كل أقاليم الدولة، وبالتالي تؤلف بحق عينة ممثله لمصر، وهي في ضوء ذلك تضخمت وفاضت خارج كردونها (٢١٤ كم٢)، وهي تمثل نحو ٢٠% من جملة سكان الدولة، وتقع في المرتبة السادسة بين أكبر مدن العالم حجما... سابقة بذلك بكين الصين ذاتها. وذلك التضخم يرجع لتوفير كل ما يحتاجه الإنسان، فكل الخدمات وغيرها متوفر في القاهرة وبالتالي تمثل محل جذب للآخرين، في حين أن الأقاليم تعاني العوز والاحتياج لكل الخدمات، فأكثر المصانع والهيئات محلها القاهرة، الأمر الذي يرسخ المركزية ويهمش باقي الأقاليم ولذلك يرى حمدان أن تقليص المركزية والاتجاه نحو الإقليمية ضرورة للآتي:

أولا: بالنسبة للقاهرة:

- **تحويل القاهرة إلى عاصمة سياسية فقط**
- **إيقاف النمو الصناعي فورا بها.**
- **تخليصها مما يحيطها من أحياء الصفيح والعشش.**
- **التوقف عن إنشاء المدن الجديدة... بالقرب منها وحولها.**

ثانيا: بالنسبة لأقاليم الجمهورية ، ينبغي إتباع الآتي:

- **إعادة وبعث أحياء المدن والعواصم الاقليمية.**
- **إعادة بناء القرية.**
- **إعادة تخطيط هيكل التقسيم الاداري.**

١١- شخصية مصر الاستراتيجية (الموقع الجيوبوليتيكي)

يقرر حمدان أن الحقيقة العظمي في كيان مصر ونقطة البدء لأي فهم لشخصيتها الاستراتيجية، هي اجتماع موقع جغرافي أمثل مع موضع طبيعى مثالى وذلك في تناسب أو توازن نادر المثال، فالموقع والموقع هنا متكاملان جدا في الدور ومتناسبان إلى حد بعيد في المقياس، فكل منهما ضخم الحجم أو الخطر، ولكن في تناسق دقيق وشبه محسوب، فمصر ليست مجرد موقع أو موضع هام، بل الاثنان معا، ليست مجرد ممر أو مقر خطير، بل كلاهما، ليست مجرد محطة طريق حاسمة، أو صومعة غلال ضخمة، بل هي هما على السواء.

ويعود فيؤكد أن من حقنا القول بأن موضع مصر إذا كان هو السهل الممتنع فإن موقعها هو الصعب الممتنع، والسهل الممتنع - لأن من السهل أن نجد بين البيئات النهرية الفيضية الغنية موضعا لمصر، وإن كان غير المحتمل أن نجد مثله في خصائصه وإمكانياته، والصعب

الممتنع - لأن موقع مصر الحاسم الحاكم هو موقع متحد مثلما هو مقتحم، وهو لذلك صعب المواصفات ويكاد يمتنع مثيله، ومن مجموع الاثنين كانت مصر في الأعم الأغلب أكبر قاعدة طبيعية وأضخم قوة بشرية في المنطقة، وكان التناسق المتناغم بين حجم موضعها وخطر موقعها هو مفتاح عبقرية المكان فيها.

هذا ويؤكد حمدان على أن قوة مصر (الموضع × الموقع) لم تكن هي الحقيقة الوحيدة الكبرى في كيانها فإن الذبذبات التي حدثت في العلاقة بينهما والتي رجت توازنهما، لعبت دورا هاما في تحديد مصير مصر، والحقيقة أن كيان مصر ومصيرها وظيفة مباشرة للعلاقة المتغيرة بين قيمتها كموقع وقوتها كموضع: موقع خطير يتطلب لتحقيقه وضمانه موضعا غنيا كفئا، فإذا ما اجتمعا طفرت مصر كقوة إقليمية كبرى، أما إذا قصر الثاني عن الأول وقصر دون متطلباته وقعت مصر فريسة إقليمية وضحية... إن مكانتنا هي محصله مكاننا وإمكانياتنا على حد سواء.... إن معادلة القوة في مصر هي:

القوة في مصر = الموقع x الموضع

ذلك مفتاح الماضي مثلما هو دليل المستقبل

١٢- تنمية جنوب مصر (مشروع للذكرى):

يعود حمدان ليؤكد لنا أن كلا من الدلتا والصعيد ضحية في نموه وتنميته لإفراط العاصمة القاهرة، فإن الصعيد الضحية الأولى والكبرى وبهذا التخلف، مع الموقع المتخلف، أصبح الصعيد بحق هو الإقليم الخفي في مصر في كل معنى، جغرافيا وحضاريا، ماديا وبشريا، اقتصاديا واجتماعيا.

ولذلك وجد حمدان أنه ينبغي حتما أن يكون الجنوب ميدانا لخطة تنمية إقليمية عظمي أشار إليها بمصطلح (مشروع للذكرى) ويرى حمدان أن هذا المشروع ظهر في أواخر السبعينات كمشروع قومي ضخم في التخطيط الإقليمي ليدفع بالتنمية الاقتصادية والبشرية في الجنوب المهمل ويرفعه إلى مستوى الشمال على الأقل... كان المشروع يشمل مصر ابتداء من تنمية قنا بما في ذلك الصحراوي يمينا ويسارا، ولكنه يرتكز بالطبع على قطاع الوادي. فإلى جانب تنمية الموارد الزراعية بالكامل باستصلاح الأراضي البور وترشيد الري والصرف وتكثيف وتجديد المحاصيل... كان من المقرر أن تجتمع في قطاع الوادي نفسه موارد الصحراوين المعدنية بصفة خاصة في ٨ مجمعات تعدينية، تخدمها جميعا بشبكة جدية من سكك حديدية وطرق سيارات وأنابيب مياه تربط الرقعة كلها، مستغله موقعها أيضا بين البحر الأحمر والسودان والسعودية لتحريك ثورة صناعية وعمرانية وحضارية شاملة.

ويرى حمدان أن الهدف المرصود نهائيا من هذا المشروع، أن تستوعب منطقة المشروع نحو ٤٠-٥٠% من حجم الزيادة الطبيعية للسكان في مصر حتى سنة ٢٠٠٠ على أن المشروع، بدلا من أن يحقق قفزة كبرى في خطة غزو الصحراء، وثورة صغرى في إعادة توزيع السكان خارج الإطار التقليدي وخارج الوادي، لحق بالجنوب نفسه في زوايا النسيان وطوايا النفتالين، وبدلا من أن يتحقق ليحد من طغيان العاصمة وهزال الجنوب، ترك مكانة لمشاريع كمترو الأنفاق أكثر تكلفه وأقل جدوى إلا أنها غير قابلة للنقض حيث أن الأمر يعني العاصمة (وما أدراك ما هي!).

١٣- تعدد الأبعاد في كيان مصر ووحدة التوجيه:

حيث يرى حمدان أن مصر لها أربعة أبعاد أساسية تشكل الكيان المصري، فمصر حلقة وصل بين العالم المتوسطي وبين حوض النيل برمته هذا من الناحية الجغرافية والإقليمية العامة. ومن الناحية البشرية والاجتماعية البحتة كانت حضارة مصر العربية... تنتكس أثناء مجاعات العصور الوسطى الرهيبة... أنها كانت تتأرجح إلى حد ما بين حضارة رأسها المتوسطي وحضارة جذورها النيلوتية أو بين انتماءاتها الأوربية وانتماءاتها الأفريقية.

أي أن مصر لها بعدان أساسيان هما البعد الأفريقي والبعد الأسيوي، وكل منهما ساهم في تكوين شخصيتها وتحديد لونها بنسبة معينة، فالبعد الأفريقي مدنا بالحياة - بالماء والسكان، ولكن البعد الأسيوي مدنا بالحضارة - الثقافة والدين منذ العرب وحتى العصر الحديث... هكذا تتحدد لنا في المحصلة العامة أبعاد أربعة في توجيه مصر: الأسيوي والأفريقي على مستوى القارات، والنيلى والمتوسطي على المستوى الإقليمي... هذه الأبعاد تتداخل في بعضها البعض ... هذا فضلا عن أن الكل يتداخل في الإطار العربي الكبير. بيد أن الإطار العربي ليس مجرد بعد توجيهي أو إشعاعي وإنما هو خامة الجسم وكيان جوهر في ذاته. هو الجسم حيث الأبعاد هي الأطراف، هو الوجه وهى الوجهة... إن تكن الأبعاد هي اتجاهات البوصلة، فإن الأساس العربي هو جسم البوصلة ذاته.

ويؤكد حمدان على إننا في دراستنا لأبعادنا الإقليمية كالبعد الأسيوي والأفريقي والنيلي والمتوسطي، وكذا في دراسة دوائرنا المكانية العربية والإسلامية والأفريقية، يجب أن نميز موضوعيا ومنهجيا بين دوائر انتماء، ودوائر علاقات وفي كل الحالات فإن

العروبة هي دائرة الانتماء، وكل ما عداها فدوائر علاقات، والانتماء العربي هو الذي يحفظ لمصر توازنها واستقرارها بين ضغوط تلك الأبعاد.

سادسا: أهداف البناء الإيكولوجي لتربية الإنسان المصري في فكر "جمال حمدان":

بعد استعراض فكر "جمال حمدان"، فيما يتعلق بطبيعة الإنسان المصري وخصائصه، ومرتكزاته الفكرية فيما يتعلق بالإيكولوجيا وعلاقتها بالعلوم الأخرى، ونظريته في تفسير الموقع الجيوبولتيكي للمجتمع المصري...، وعرض أبعاد الأزمة الإيكولوجية التي يعاني منها الإنسان المصري، ومن خلال أسس البناء الإيكولوجي للمجتمع المصري والتي يستطيع الإنسان المصري من خلالها أن يواجه الأزمة الإيكولوجية... نجد أن فكر "جمال حمدان" على مستوى التنظير يحتوي على ثقافة إيكولوجية، سياسية، ثقافية، صحية... يهدف حمدان من خلالها إلى تربية أبناء الشعب المصري المكافح المتأصل في ضوئها، وذلك من خلال التربية الإيكولوجية التي تعمق من ارتباط الإنسان المصري بالبيئة المصرية بكل مكوناتها، وكذا تكسبه مقومات الحفاظ والدفاع عن مجتمعه، وتكسبه معارف مختلفة حول طبيعة موقع المجتمع المصري وخصائص الموضع وأن قوة المجتمع المصري تنتج تكامل الموقع × الموضع... إلخ. .

في ضوء كل ذلك يمكن تحديد أهداف البناء الإيكولوجي لتربية الإنسان المصري في فكر حمدان، أو تحديد أهداف التربية الإيكولوجية للإنسان المصري عند حمدان في: -

- تكوين الذات الإيكولوجية للإنسان المصري

- تنمية الوعي الإيكولوجي للإنسان المصري.
- تحفيز الإنسان المصري للتصدي للأزمة الإيكولوجية بأبعادها.
- تحقيق ارتباط الإنسان المصري بالموقع الجيوبوليتيكي لمصر من خلال معادلة قوة مصر = جيوبوليتيكية الموقع × أصالة الموضع.

١- "جمال حمدان" وتكوين الذات الإيكولوجية للإنسان المصري:

لم يقدم الباحثون تعريفا للذات الإيكولوجية، ولكن استفادت الدراسة الحالية من الدراسات في علم السياسية من خلال تعريف الذات السياسية. ومن الدراسات في المجال الثقافي حول معنى الذات وارتباطها بكيان الإنسان العقلي والوجداني... فذات الإنسان هي التي تكسبه مجموعة التوجهات نحو العالم الذي يعيش فيه، وأنها تشتمل في داخلها على مجموعة من القيم والمعتقدات والاتجاهات والميول السلوكية، وكذا جملة من المعارف والمدركات التي تسهم في تشكيل الوعي لدى الإنسان، وتدفعه نحو المشاركة بفاعلية في الحياة الاجتماعية.

وفي ضوء ذلك تعرف الدراسة الذات الإيكولوجية بأنها: مجموعة التوجهات الإيكولوجية التي تتكون لدى الإنسان نحو البيئة التي يعيش فيها بما تتضمن من قيم ومعتقدات إيكولوجية، واتجاهات وميول وولاءات وكذا سلوكيات إيجابية ومعارف ومدركات إيكولوجية تبرز علاقة الإنسان بالبيئة التي يعيش فيها والذي هو جزء منها.

وانطلاقا من ذلك يمكن تحديد مكونات الذات الإيكولوجية عند جمال حمدان في ثلاثة عناصر أساسية هي:

أ- القيم والمعتقدات الإيكولوجية.

ب- الاتجاهات والولاءات والميول السلوكية ذات المنحى الإيكولوجي.

ج- المعارف والمدركات الإيكولوجية.

١-أ- القيم والمعتقدات الإيكولوجية في فكر حمدان:

من خلال تحليل فكر حمدان في موسوعته شخصية مصر يمكن إبراز القيم والمعتقدات الإيكولوجية الآتية:

- **التكامل الإيكولوجي بين الإنسان والبيئة.**
- **الاعتزاز بموقع وموضع مصر.**
- **تقنين معدل الزيادة السكانية.**
- **تصحير العمران والصناعة.**
- **ضبط عمليات الهجرة.**
- **حسن استثمار موارد المياه.**
- **ترشيد استهلاك الموارد الطبيعية.**
- **تعظيم الإنتاج وترشيد الفاقد.**
- **الاعتدال في التعامل مع الطبيعة.**
- **النيل شريان الحياة.**
- **زيادة المساحات الخضراء (تخضير الصحراء).**
- **حماية نهر النيل من التلوث.**
- **التعاون في الحفاظ على موارد مصر الطبيعية.**
- **التجانس الطبيعي**
- **التجانس الحضاري.**
- **التجانس البشري.**
- **إقامة المجتمعات العمرانية الجديدة.**

- **ضبط عمليات النسل.**
- **حسن استخدام الأرض.**
- **التخطيط الإيكولوجي (الزراعي - الصناعي الهيكل الإداري).**
- **التذوق الجمالي للموقع والموضع المصري إعادة بناء القرية**
- **إحياء المدن والعواصم الإقليمية.**
- **إدراك إيقاع المكان وحركة الزمان.**
- **تنشيط الحفاظ على البناء الحضاري.**
- **التوسط.**

تلك أهم القيم والمعتقدات الإيكولوجية التي تكون العنصر الرئيس في الذات الإيكولوجية عند "جمال حمدان"، والتي عمل حمدان على تكوينها لدى الإنسان المصري، بهدف بناء عقله وتشكيل خلقه وتنمية اتجاهاته وولاءاته وميوله الإيجابية نحو التعامل الرشيد مع الطبيعة.

١-ب- الاتجاهات والولاءات والميول السلوكية ذات المنحى الإيكولوجي عند حمدان :

حيث يترتب على الإيمان بالقيم والمعتقدات السابقة بروز مجموعة من الاتجاهات والميول السلوكية، وكذا عدد من الولاءات. فمن المقرر أن الاتجاه موقف من قيمه، وأن كل قيمة واعتقاد تولد وتبعث في النفس عند الإنسان سلوكا في أحد الاتجاهات.

في ضوء ذلك تتمثل الولاءات والاتجاهات والميول السلوكية ذات المنحى الإيكولوجي عند حمدان في الآتي:

- **الاتجاه الإيجابي نحو حماية نهر النيل.**
- **الاتجاه الإيجابي نحو ترشيد استخدام المياه.**

- **الإيمان بالوحدة الطبيعية لمصر.**
- **الولاء والاعتزاز بموقع وموضع مصر.**
- **الاتجاه الإيجابي نحو إعادة توزيع الدخل.**
- **الاتجاه الإيجابي نحو تنظيم الأسرة وضبط عمليات النسل.**
- **الاتجاه الإيجابي نحو تصحير العمران والصناعة.**
- **الاتجاه الإيجابي نحو إعادة هيكلة القرية المصرية.**
- **تنمية مشاعر الولاء والانتماء للحضارة المصرية.**
- **الكراهية الشديدة للإسراف في موارد البيئة.**
- **النفور من استخدام الطغيان مع الطبيعة.**
- **تنمية اتجاهات طيبة نحو إقامة علاقات منظمة بين الإنسان والبيئة.**
- **الاتجاه الإيجابي نحو التنظيم العمراني.**
- **الاتجاه الإيجابي نحو زراعة الصحراء. الاتجاه الإيجابي نحو ضبط عمليات الهجرة الداخلية والخارجية.**
- **الاتجاه الإيجابي نحو ترشيد استثمار الأرض.**
- **الاتجاه الإيجابي نحو الحفاظ على الماء من التلوث. ..**
- **تنمية مشاعر المسئولية عن البيئة المحيطة بالإنسان.**
- **تنمية مشاعر التعاون المثمر في استخدام موارد البيئة.**
- **تنمية مشاعر النفور من الحتم الجغرافي**
- **تنمية مشاعر التقدير لتاريخ مصر الحضاري والثقافي.**

وتمثل تلك الولاءات والاتجاهات... العنصر الثاني في تكوين الذات الإيكولوجية للإنسان عن حمدان والتي يتوجب على التربية أن تستخدمها في بث روح الانتماء للمكان والاتجاه نحو المحافظة عليه... إلخ.

١-ج- المعارف والمدركات الإيكولوجية عند حمدان:

هذا العنصر رغم أنه أحد مكونات الذات الإيكولوجية عند حسدان إلا أنه يدخل كأحد مكونات أو عناصر الوعي الإيكولوجي عنده، وسوف يتضح ذلك جليا عند تناولنا الوعي الإيكولوجي في فكر جمال حمدان.

٢- "جمال حمدان" وتنمية الوعي الإيكولوجي لدى الإنسان المصري:

حيث يعبر الوعي الإيكولوجي عن رؤية شاملة تنبع من جملة المعارف الإيكولوجية التي تمكن الإنسان من إدراك أبعاد البناء الإيكولوجي، وأبعاد أزمة البناء الإيكولوجي... وتحليلها وتحديد موقعه منها، والتي تدفعه نحو التحرك من أجل مواجهتها أو التخلص منها.

ولقد قام حمدان بعملية توعية متنوعة من خلال مؤلفاته المتنوعة والتي تناولت قضايا إيكولوجية متعددة. وكذلك من خلال بعض المقالات التي نشرت في بعض الصحف، أي أن حمدان استخدم قلمه في توعية أبناء الشعب المصري بالأزمة التي يعيشونها على كافة المجالات ... وفي نفس الوقت قام باقتراح الحلول التي تناسب طبيعة مجتمعنا. ولقد قام حمدان أيضا بعملية توعية مركزه من خلال موسوعته شخصية مصر والتي جاءت في أربعة أجزاء تناول فيها بالتفصيل النادر شخصية مصر الطبيعية والبشرية، والاقتصادية، والحضارية... وقد ضمنها حمدان معارف ومدركات إيكولوجية متنوعة أكد عليها من خلال نظريته التي يعبر عنها بالمعادلة الآتية : قوة مصر = الموقع × الموضع

وأن شخصية مصر الاستراتيجية تجمع في تناسب وتناسق نادر بين موقع جغرافي أمثل مع موضع طبيعى مثالى... إلخ.

تلك المعارف والمدركات الإيكولوجية أكد حمدان على أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالميادين السياسية والاقتصادية... وكل هذه المعارف تسهم في تشكيل وتنمية الوعي الإيكولوجي لدى الإنسان المصري، وذلك من خلال الوعي بما يلي:

- **الوعي بالموقع الجيوبولتيكي لمصر.**
- **الوعي بخصائص الموضع المصري.**
- **الوعي بأن قوة مصر = عمق الموقع × عبقرية الموضع.**
- **الوعي بأن شخصية مصر مزيج من إيقاع المكان وحركة الزمان.**
- **الوعي أن الحكومة - فكرا وجهازا - أداة التكامل الإيكولوجي بين الإنسان والبيئة.**
- **الوعي بأن النيل واهب الحياة في مصر.**
- **الوعي بالسبق الحضاري للمجتمع المصري.**
- **الوعي بأهمية التلاقح الحضاري بين الأمم.**
- **الوعي بأن الحضارة المصرية نتاج تفاعل الإنس أن المصري مع بيئته التاريخية.**
- **الوعي بأهمية التخطيط (الزراعي - الصناعي - العمراني).**
- **الوعي بوجود الحسم الجغرافي وليس الحتم الجغرافي .**
- **الوعي باستراتيجية استخدام والحفاظ على المياه في مصر.**
- **الوعي بآثار المشكلة السكانية ومضارها على البيئة المصرية.**
- **الوعي بأهمية إقامة المجتمعات العمرانية الجديدة.**
- **الوعي بأهمية تنمية جنوب مصر.**
- **الوعي بصورة استغلال الصحراء في العمران والصناعة.**
- **الوعي بمقومات الصناعة المصرية.**

- **الوعي بأن التجانس صفة جوهرية في المجتمع المصري.**
- **الوعي بضرورة الزعامة العربية لمصر بحكم الموقع والموضع.**
- **الوعي بأن مصر هي درع الأمان للبيئة العربية.**
- **الوعي بأن الطغيان تجسيد لتاريخ مصر الاجتماعي من الوجهة الإيكولوجية.**
- **الوعي بأن زراعة الري في مصر هي أساس الحضارة والنظام والقانون.**
- **الوعي بأن التوسط والاعتدال من أبرز سمات شخصية مصر والشخصية المصرية.**
- **الوعي بأبعاد الأزمة الإيكولوجية للمجتمع المصري..**
- **الوعي بنظرية الأمن المصري للدفاع عن سيناء والقناة.**

٣- "جمال حمدان" وتفعيل مشاركة الإنسان المصري للتصدي للأزمة الإيكولوجية:

حيث اتجه جمال حمدان في دراسته لشخصية مصر إلى إبراز أبعاد الأزمة الإيكولوجية التي تواجه الإنسان والتي تؤثر بالسلب على حركة المجتمع وتقدمه. وتتصف نظرة حمدان بالرؤية الشاملة لقضايا المجتمع المصري ذات الوجهة الإيكولوجية... باعتبار تلك القضايا هي نتاج نشاطات الإنسان المتعددة في التعامل مع البيئة... تلك الرؤية الإيكولوجية التكاملية في فكر حمدان تنبع من نظريته التي تقوم على الموقع والموضع، فكما أن التجانس في شخصية مصر خاصية الموضع، فإن تعدد الأبعاد في كيانها وظيفة للموقع.

ومن خلال تحليل فكر حمدان الإيكولوجي ومن خلال عرضنا لأبعاد الأزمة الإيكولوجية عنده وكذلك من خلال عرضنا لأسس البناء الإيكولوجي... تبين أن حمدان عرض لأبعاد الأزمة الإيكولوجية بكل أمانة لتوعية أبناء الشعب المصري بها وبالقضايا الناتجة عنها وتأثيراتها على الإنسان المصري وكذا تأثيرها الضار على البيئة المصرية. وتدني مستوى المعيشة... ولم يكتف بذلك فقط بل إنه أتجه إلى وضع حلول واستراتيجيات لمواجهة أبعاد تلك الأزمة، حتى يستثير أبناء الشعب المصري وتحفيزهم نحو التصدي لتلك القضايا... فنجده يتحدث عن النمو السكاني المتزايد وتأثيره على زيادة الاستهلاك والتهام أي زيادة في الإنتاج... ثم يشرع في وضع استراتيجية لحل المشكلة السكانية حلا جذريا. وكذلك يعرض لمشكلة المياه ونقصها في المستقبل... ثم يتجه بوضع استراتيجية لاستخدام المياه في مصر... ويعرض لمشكلة الفجوة الغذائية في مصر وما قد يصيبنا في المستقبل من اعتماد رئيسي على استيراد السلع الغذائية... ثم يتجه لوضع منظومة إيكولوجية للزراعة المصرية... وهكذا مع باقي ما رصدته الدراسة من أبعاد وحلول لها من فكر حمدان.

ولكن يظل ما قاله حمدان واقترحه من حلول ووصوله إلى حيز التنفيذ رهن بقدرة الإنسان المصري على المشاركة في التصدي لأبعاد تلك الأزمة، وقدرة الإنسان على المشاركة في التصدي لقضايا تلك الأزمة ينبع من امتلاك الإنسان للقيم والمعتقدات الإيكولوجية وللمهارات والاتجاهات التي توجه الإنسان نحو التعامل الرشيد مع مكونات البيئة وكذا يعتمد مشاركة الإنسان المصري على مدى وعيه بمكانة مصر وتاريخها

الحضاري... وبذلك يربط حمدان بين قدرة الإنسان على المشاركة في تطوير مجتمعه وامتلاكه مقومات تلك المشاركة من القيم والمعتقدات والمهارات والاستعدادات التي تؤهله لذلك وتنطلق من وعيه المسبق بالتطور الحضاري لمجتمعه.

٤- "جمال حمدان" وتحقيق، ارتباط الإنسان المصري بالمكان والزمان :

إن تحقيق ارتباط الانسان المصري بالموقع الجيوبوليتيكي لمصر وبالموضع المثالي عبر الزمان، يستلزم تحقيق الاهداف السابقة أولا، أي لابد من:

١- تكوين ذات ايكولوجية متفردة

٢- تنمية وعي إيكولوجي شامل.

٣- تحقيق المشاركة الفعلية والتعاون الإيكولوجي المثمر.

فمن خلال تحقيق هذه الأهداف الثلاثة يحدث ارتباط حقيقي بين الإنسان المصري والمكان الذي يعيش فيه عبر الزمان وهذا الارتباط هو الذي يكون الإبداع والحضارة عند حمدان، حيث أن البناء الحضاري لمصر تكون من خلال التفاعل المثمر للإنسان المصري مع بيئته عبر التاريخ.

وتحقيق هذه الأهداف حتى يتم الارتباط الوثيق بين الإنسان المصري وبيئته عبر التاريخ يعتمد في جانب كبير منه على التربية التي يتلقاها الإنسان المصري عبر وسائطها المتعددة بداية من الأسرة فالتعليم فالإعلام فالمؤسسات الدينية وقصور الثقافة... فكل هذه المؤسسات لها دور كبير في إكساب الإنسان المصري

مجموعة القيم والمعتقدات الإيكولوجية، والولاءات والاتجاهات والميول الإيجابية نحو الحفاظ على موارد الطبيعة، وتكسبهم المعارف والمدركات الإيكولوجية التي تحدد خصوصية الموقع والموضع المصري بالنسبة للعالم العربي والعالم ككل ... وبالتالي فإن تحقيق الأهداف السابقة تأكيدا لتوثيق الصلة بين الإنسان المصري وبيئته عبر التاريخ يتطلب ضرورة التفعيل التربوي لتحقيقها.

سابعا: التربية وتفعيل أهداف البناء الإيكولوجي عند "جمال حمدان":

التربية هي العملية الواعية الموجهة توجيها قائما على وعي من أجل إحداث تغيرات مرغوب فيها في سلوك الإنسان، فالتربية تخضع للتوجيه من جانب المجتمع وذلك لتنشئة وتربية أبناءه بالصورة التي يرتضيها المجتمع حتى يصبحوا مواطنين أكفاء يعتمد عليهم المجتمع في نهضته وتحديثه.

وهناك علاقة قوية بين التربية والنظام الإيكولوجي، لذا فإن عملية عزلهما وتعطيل التأثير المتبادل بينهما ينطوي على تناقض ضمني يعود بالضرر على كليهما معا. وهذا ما يعزى إليه تدهور البيئة الطبيعية للمجتمع وانتشار التلوث... وبالتالي التأخر والتخلف. وتبدو العلاقة أكثر ترابطا بين التربية والإيكولوجيا وذلك من خلال الإجابة عن الآتي:

- ما طبيعة العلاقة بين التربية والنظام الإيكولوجي؟
- ما محور اهتمام كل من التربية والإيكولوجيا؟
- ما الوظائف الإيكولوجية للتربية؟

١- طبيعة العلاقة بين التربية والنظام الإيكولوجي:

العلاقة بين التربية والنظام الإيكولوجي علاقة قوية الارتباط، فالنظام التعليمي يرتبط ارتباطا عضويا بالمجتمع الذي يوجده وبالبيئة (موقعا وموضعا) التي ينمو من خلالها، ارتباطا يترتب عليه أن يعكس ذلك النظام من خلال بنيته ووظائفه ومحتواه ووسائله مقومات البيئة الإيكولوجية التي نشأ بها، وأيضا يعكس ما يسود هذا المجتمع من أوضاع سياسية واقتصادية ... فرضتها وتحكمت فيها إلى حد كبير الظروف والعوامل الإيكولوجية والاقتصادية في المجتمع.

فالنظام التعليمي لابد وأن يتم بناؤه ملتحما مع الموقع الجيوبوليتيكي للمجتمع، فأهداف التربية ومن ثم أهداف التعليم والمبادئ التي يقوم عليها، ... من الأمور التي لا يمكن تقريرها بعيدا عن مقومات وأسس البناء الإيكولوجي للمجتمع، ومن ناحية أخرى فإن تطوير البناء الإيكولوجي على أسس علمية مدروسة لا يتم بدون التربية بتكاتف كل مؤسساتها. وبالتالي فإن العلاقة بين التربية والنظام الإيكولوجي علاقة عضوية وثيقة الارتباط.

٢- الإنسان محور اهتمام كل من التربية والإيكولوجيا:

محور اهتمام كل من التربية والإيكولوجيا هو الإنسان ويتضح ذلك من أن دراسة الإنسان هي أولى الدراسات التي ينبغي أن يبدأ بها الإيكولوجي واهمها جميعا حتى يستفهم جوانب الإنسان ومدى ارتباطه وتأثره بمقومات البناء الإيكولوجي للمجتمع... حتى يتم تحديد أطر للعلاقة أو شكل العلاقة التي قد تنشأ بين الإنسان والبيئة المحيطة به.

كما أن التربية هي الأداة الفعالة التي تصنع من هذا الإنسان إنسان إيجابي متفاعل يحسن استثمار موارد الطبيعة ويحافظ على

مقومات مجتمعه... وذلك من خلال القيم والمعتقدات والمعارف التي تكسبها التربية للإنسان وكذا من خلال الاتجاهات والولاءات... التي تنميها فيه.

٣- الوظائف الإيكولوجية للتربية:

تتعدد الوظائف الإيكولوجية للتربية بحيث تتضمنه:

- **إكساب الإنسان القيم والمعتقدات والمعارف والمدركات المختلفة حول النظام الإيكولوجي... والتي تكسب الإنسان معايير التعامل الأمثل مع الطبيعة.**
- **إكساب الإنسان المهارات والقدرات والاستعدادات التي تمكنه من الحفاظ على موارد الطبيعة، ومن ترشيد استخدام الموارد والثروات الطبيعية ... إلخ.**
- **إكساب الإنسان الاتجاهات الإيجابية والولاءات والوجدانات التي تعمق من ارتباط الإنسان بالمكان عبر الزمان، وتكسبه مقومات الاعتزاز بوطنه وتدفعه نحو الزود والدفاع عنه ... إلخ.**
- **تحفيز الإنسان ودفعه نحو المشاركة الفاعلة في تطوير البيئة الطبيعية وتحديثها والحفاظ على مواردها... إلخ.**

نصل من ذلك إلى أن الارتباط قوى و بارز بين التربية والنظام الإيكولوجي وأن "التربية الإيكولوجية" هي السبيل إلى تصحيح وضع العملية التربوية وتقويمها حتى تصبح متكاملة وملائمة للإنسان، وأن الوظيفة الإيكولوجية للتربية تتمثل في إكساب الإنسان القيم والمعتقدات الإيكولوجية والمعارف والمدركات الإيكولوجية وتوعية الإنسان بكافة القضايا الإيكولوجية التي

تواجه المجتمع وتؤثر في حياة وارتقاء الإنسان، وتدفعه نحو المشاركة الفاعلة في تطوير وتحسين البيئة الإيكولوجية المحيطة به.

مما سبق يمكن اقتراح تعريف "التربية الإيكولوجية" على أنها:

نمط من أنماط التربية تهدف إلى إكساب الإنسان القيم والمعتقدات والأخلاقيات الإيكولوجية، وتنمى وعيه بالبناء الحضاري لمجتمعه، وبأبعاد الأزمة الإيكولوجية التي تواجه المجتمع بما تحتويه من قضايا، وتدفعه نحو المشاركة الفعالة لمواجهة الأزمة بتداعياتها، وتحقق ارتباط الإنسان بين من المكان والزمان (باعتبار الحضارة نتاج تفاعل الإنسان مع بيئته عبر التاريخ).

وتحقيق التربية الإيكولوجية كنمط من أنماط التربية يعتمد على انطلاق التربية عامة في المجتمع من وعي تربوي ومن رؤية تربوية شاملة تجمع بين المؤسسات التربوية في بصر بهدف إحداث تغييرات في الاتجاه المرغوب فيه. تلك الرؤية التربوية تحتاج في تنفيذها إلى تكاتف كل المؤسسات التربوية بداية من الأسرة ، فالمدرسة، فالإعلام، فالمؤسسات التربوية... إلخ.

ومن المقرر أن تنطلق كل المؤسسات التربوية من رؤية واحدة لتحقيق أهداف محددة، فكل مؤسسة تساهم من جانبها بقدر من المسئولية والعمق الملقي عليها في تحقيق أهداف التربية... بحيث تتكامل كل المؤسسات في تحقيق أهداف التربية.

ولكن الواضح الآن في مجتمعنا هو التناقض الواضح بين مؤسسات المجتمع التربوية في تحقيقها للأهداف، فكل مؤسسة تعمل بصورة منعزلة عن باقي المؤسسات الدرجة تشعر أنها تنطلق من رؤى خاصة أو رؤى متشعبة ليس لها كيان أو جسد واحد يجمعها.

وانطلاقا من أن التعليم مؤسسة رسمية (مقصودة مباشرة) يعهد إليه المجتمع تنشئة وتربية أبناؤه عن بصر من خلال نظام متكامل يشمل أهداف ومنهج ومعلم وإدارة... وفق منظومة محددة من جانب سياسة تعليمية موضوعة (قد تكون غير واضحة أو غير محددة في المجتمع المصري الآن ولكن المفترض أن تكون واضحة ومحددة القسمات في المستقبل القريب).

وانطلاقا من أن وسائل الإعلام مؤسسة رسمية (مقصودة غير مباشرة) متنوعة وجذابة وذات تأثير نافذ إلى وجدان الإنسان من خلال مؤثراتها المختلفة، كما أن لها جاذبيتها التي تنمط الإنسان وتكسبه معارف بطريقة غير مباشرة. كما أن وسائل الإعلام تصل إلى غالبية الشعب المصري في أي مكان وبالتالي لها وحدة التأثير وشدة التغيير في المجتمع بين الحين والحين.

فوسائل الإعلام بشعبيتها الكبيرة ووسائلها المتنوعة الجذابة تؤثر في تربية وتنشئة الأجيال بصورة تفوق النظام التعليمي بوضعه الحالي.

وفي ضوء كل ذلك تحاول الدراسة تحقيق أهداف البناء الإيكولوجي للإنسان المصري عند "جمال حمدان" من خلال:

١- النظام التعليمي.

٢- وسائل الإعلام.

هذا مع الاعتراف بدور المؤسسات الأخرى التي يجب أن تتكامل مع نظام التعليم ووسائل الإعلام. ولكن تحديد التعليم والإعلام يرجع إلى معايير متعة أهمها عمق تأثيرهما في بنية الإنسان أكثر من باقي المؤسسات.

٧-١- نظام التعليم وتحقيق أهداف البناء الإيكولوجي عند "جمال حمدان":

في ضوء التغيرات المتسارعة والمتصارعة التي يموج بها المجتمع المصرى والتي تكاد تعصف بكل قديم وجديد في المجتمع، وفي ضوء إعادة البناء الإيكولوجي للإنسان المصري بهدف إعادة ربطة وتأكيد انتمائه ببيئته الحضارية عبر التاريخ، وإكسابه مقومات العمل على نهضة المجتمع المصري والحفاظ على مقومات بتائه الإيكولوجي من ثروات وموارد... فإنه ينبغي إحداث تغييرات في بنية نظام التعليمي، تغيرات في الأهداف. والمنهج، والأنشطة التربوية، وإعداد المعلم، والإدارة التربوية، والتقويم، تضمن تحقيق أهداف البناء الإيكولوجي للإنسان كما تبدو في فكر حمدان وذلك كما يلى:

أ- أهداف التعليم واستيعاب أهداف البناء الإيكولوجي للإنسان المصري:

حيث يجب أن تتضمن أهداف التعليم أهداف البناء الإيكولوجي وأن تتدرج من البسيط إلى المعقد مع تدرج نظام التعليم من المرحلة الابتدائية إلى أعلى مراحل التعليم... وبالتالي ينبغي أن تتضمن أهداف التعليم في داخلها الأهداف التالية:

- **تكوين الذات الإيكولوجية للإنسان المصري (وتعني إكسابه القيم والمعتقدات والاتجاهات والولاءات الإيكولوجية وكذا المعارف والمدركات الإيكولوجية التي تبلور للإنسان خصائص الموقع وما يتميز به الموضع انطلاقا من نظرية حمدان بأن المجتمع المصري تنبع قوته من خلال الموقع والموضع.**
- **تنمية وعي الإنسان المصري بمقومات البناء الإيكولوجي للمجتمع المصري.**
- **تحفيز الإنسان المصري للمشاركة في التصدي لأبعاد الأزمة الإيكولوجية ومحاولة تفهم استراتيجيات حلها.**
- **تعميق ارتباط الإنسان المصري بحضارة البيئة المصرية التي تكونت عبر التاريخ.**

ب- المنهج وتضمين القيم والمعتقدات والاتجاهات والولاءات والمعارف والمدركات الإيكولوجية:

حيث يجب إحداث تغييرات في المناهج الدراسية بحيث تستجيب لمتطلبات النمو الإيكولوجي للإنسان المصري بحيث تحقق عمق العلاقة الرشيدة بين الإنسان والبيئة المحيطة به، وبحيث يتحقق التوازن في اكتساب القيم والمعتقدات والمهارات ذات المنحى الإيكولوجي مع القيم والمعتقدات الأخرى... ويكون ذلك بتضمين القيم والمعتقدات المختلفة في مناهج التعليم المختلفة بالطريقة التي تناسب الأعمار الدراسية وتراعي الفروق الفردية وتحقق انتماء الإنسان لبيئته الحضارية.

ج- الأنشطة التربوية وإعطاء الأولوية للأنشطة الإيكولوجية للحفاظ على البيئة:

حيث ينبغي أن تتنوع الأنشطة التربوية لتشمل في داخلها الأنشطة الإيكولوجية التي تثري معلومات الإنسان عن مقومات البناء الإيكولوجي للمجتمع المصير وتدعو الإنسان نحو المحافظة عليها مما يتهددها من أخطار... وبالتالي ينبغي أن تتجه الأنشطة الإيكولوجية نحو تنمية وعي الطلاب بمكونات البيئة المحيطة وعناصر القوة والضعف فيها وتدفعهم نحو المشاركة في تجميل المدرسة والبيئة المحيطة والحرص على نظافتها وحسن استثمار مواردها...إلخ.

د- إعداد المعلم وتنمية وعيه بأسس البناء الإيكولوجي للمجتمع المصري:

انطلاقا من أن المعلم هو الدعامة الرئيسة في نجاح العملية التعليمية ومن ثم فإن حسن إعداد المعلم وتنمية وعيه بأبعاد الأزمة الإيكولوجية للمجتمع المصري (كما سبق العرض لها) وأسس البناء الإيكولوجي اللازم لنهضة المجتمع وتحقيق ارتباطه بالحضارة المصرية والاعتزاز بالانتماء إليها... سوف يعود على الطالب بأن يحرص المعلم على تعميق ارتباط الطلاب بالبيئة والحضارة المصرية... بل ويدفعهم نحو الاعتزاز بها وضرورة الحفاظ عليها... إلخ

هـ - الإدارة التربوية وتحقيق التكامل الإيكولوجي بين الإنسان والمكان:

حيث يجب إعادة ترتيب أشكال الإدارة التي تمارس داخل النظام التعليمي بحيث تؤدي دورها الأساسي في تشكيل المناخ المناسب لسير العمل وتعميق ارتباط المعلم والتلميذ ... بالبيئة

المدرسية وبالبيئة المحيطة بالمناخ المدرسي، والاعتزاز بالبناء الحضاري للمجتمع المصري الناتج عن التفاعل الناجح بين الإنسان وبيئته التاريخية، ودراسة المشكلات الإيكولوجية بالمدرسة والعمل على حلها باشتراك جميع من في المدرسة... وبالتالي تستطيع الإدارة داخل النظام التعليمي أن تحقق التكامل الإيكولوجي بين الإنسان والمكان عبر الزمان .

و- التقويم وشمولية المعارف والمهارات الإيكولوجية:

ففي ضوء ما سبق من تغيير الأهداف واشتمالها على أهداف البناء الإيكولوجي وبالتالي تغيير المنهج وتنويع الأنشطة وإعادة ترتيب أشكال الإدارة التربوية... فإنه لابد من تطوير التقويم وتنويع أدواته حتى يمكن الاهتداء إلى مدى شمولية المعارف الإيكولوجية التي اكتسبها المتعلم وكذا مسدى تكاملها مع المهارات والمدركان الإيكولوجية الأخرى.

٢ - ٧ - الإعلام وتحقيق أهداف البناء الإيكولوجي عند "جمال حمدان":

أ- الإعلام وتكوين الذات الإيكولوجية للإنسان المصري كما تبدو في فكر حمدان:

يمكن للإعلام بوسائله المتنوعة أن يعمل على تكوين الذات الإيكولوجية للإنسان المصري فمن خلال برامج التليفزيون الثقافية ومن خلال برامج الإذاعة التي تخاطب كل صغير وكبير، ومن خلال الصحافة، وكذا من خلال المسرح والسينما، يمكن للإعلام أن يتناول القضايا الإيكولوجية التي رصدتها الدراسة بالمناقشة والتحليل للتعرف على أسبابها ومخاطرها على الإنسان والمجتمع

وكذا اقتراح الحلول المناسبة... فكل ذلك يسهم في إكساب الإنسان القيم والمعتقدات، ذات المنحى الإيكولوجي وتكسبه المعارف والمدركات، الإيكولوجية، وكذا تكون لديه اتجاهات إيجابية نحو التعامل الرشيد مع موارد البيئة، وتعمق لدية الولاء والانتماء للحضارة المصرية.

ب- الإعلام وتنمية الوعي الإيكولوجي للإنسان المصري كما تبدو في فكر حمدان:

فمن خلال وسائل الإعلام المتنوعة بآلياتها وبرامجها... يمكن أن يسهم الإعلام في تنمية الوعي الإيكولوجي لدى الإنسان المصري، تنمي وعيه بخصائص الموقع والموضع المصرى، وتوعية بأن النيل واهب الحياة في مصر ومن ثم فإن حماية النيل يقتضي الحفاظ على المياه وترشيد استعمالها، توعية بأبعاد الأزمة الإيكولوجية، وبالتوسط والاعتدال إلى في شخصية مصر والشخصية المصرية ... إلخ ويمكن أن يتم ذلك ببساطة بأن يتم تناول، مؤلف شخصية مصر لجمال حمدان بالدراسة والمناقشة والعرض والتحليل من خلال وسائل الاعلام المتنوعة.

ج : الإعلام وتحفيز الإنسان للمشاركة في حياة البيئة الطبيعية:

فمن خلال ما تقوم به وسائل الإعلام من تكوين للذات الايكولوجية ومن عمليات توعية بمقومات البناء الإيكولوجي للمجتمع المصري وكذا من خلال عمليات التوعية بأبعاد الأزمة الإيكولوجية... وضرورة تحقيق التكامل الإيكولوجي بين الإنسان والبيئة التي يعيش فيها وأن الوفاق الإيكولوجي يطلب حسن استثمار الإنسان لموارد البيئة المتاحة، ويتطلب حماية البيئة من

التلوث... من هنا يستطيع الإعلام من خلال وسائله المتعددة والمتنوعة أن يحفز ويدفع الإنسان المصري إلى المشاركة من أجل حماية الطبيعة التي يعيش فيها مما يتهددها من أخطار.

جيوبوليتيكية الصراع العربي الاسرائيلي

في فكر "جمال حمدان"

لقد جاءت الطروحات الحمدانية - إذا صح التعبير - بشأن المستقبل المنظور واللامنظور لهذا الصراع ضمن محتوى كتابه الحيوي الموسوم بـ "٦ أكتوبر في الاستراتيجية العالمية"، وإن كانت كتبه الأخرى لم تخل من الإشارة إلى هذا المستقبل.

والمطالع لسياق ومحتوي هذا الكتاب، يتأكد له وبما لا يدع مجالا للشك بأن الدكتور جمال حمدان، كان ولا ريب منظرا تاريخيا، يمتلك الإمكانيات البحثية التي تؤهله للتصدي لهذه الإشكالية المستقبلية التي ينبغي علينا النظر إليها بموضوعية، وذلك لأن هذا الصراع سوف يستمر مشتعلا إلى أن يأذن الله عز وجل بنهايته الحتمية.

وفي هذا السياق الحضاري، يرى الدكتور جمال حمدان بأنه لكي نتصور مسار الصراع في المستقبل، فإنه يحسن بنا رغم خطر التكرار وأكثر منه خطر الإيجاز المخل، أن نعود إلى الحقائق الأساسية في القضية وأولياتها الأولية، تلك التي لا ينبغي أن تغيب عن الأنظار لحظة حتي لا نفقد وضوح الرؤية تحت ثقل اللحظة العاجلة مهما بلغت كثافتها أو ضغوطها، فالصراع الذي هو مفروض علينا لم نسع إليه، هو إلى أقصى حد صراع مركب معقد لا بسيط أو مباشر، اذ انه متعدد الأبعاد والمستويات والأهداف، فهو أولا صراع بقاء وقوة معا أي صراع وجود ومصير في الوقت نفسه، ثم هو بدرجات متفاوتات ومن جانب أحد الطرفين على الأقل صراع حضارات كما هو صراع أجناس، وصراع قوميات مثلما هو صراع أديان، وميدانه جغرافيا يبدأ من

المجال المحلي ليمتد إلى أطراف الأرض تقريبا، أما تاريخيا فامتداده يشمل الماضي والحاضر ليستمر طويلا في المستقبل البعيد. كذلك أطرافه تتعدد، ما بين الفلسطينيين والعرب - والمسلمين - في جانب، وجبهة الصهيونية العالمية - الإمبريالية العالمية وبخاصة محور إسرائيل - الولايات المتحدة في جانب أخر، بل فوق هذا كله. فلقد تشابك صراعنا - أردنا أم لم نرد - في خيوط الصراع العالمي بين كتل الاستقطاب ومعسكرات الأيديولوجيات، وقطب القوى العظمى. لكل هذا فلسنا نغالي إذا قلنا إنه صراع فريد، وقضية فلسطين - إسرائيل أو العرب والمسلمين - الصهيونية لامثيل لها على وجه الأرض في الوقت الحالي. حتى قضية جنوب أفريقيا - سابقا – لا تشبهها، أما مثيله ففي العصور القديمة الغابرة التاريخية أو قبل التاريخية وحدها نجده، بل حتى - بأبعاده المركبة لك – لا نجده، وللسبب نفسه فإنه بسهولة أعقد صراع في عالم اليوم، مشحون بأخطر الاحتمالات المتفجرة، وسيكون أطولها عمرا وأخرها حلا، والجزء الأكبر منه مؤجل بالضرورة إلى المستقبل البعيد أو غير المرئي.

وفي ضوء منطلقات هذه الرؤية الحمدانية التي يمكن القول بأن الباحث الحضاري المتتبع للمسار التاريخي لهذا الصراع الدامي تاريخيا، سوف يجد أنه قد اشتد، واتخذ طابع العنفواني المميز له في العصر الحديث، منذ أكثر ما يزيد على قرن من الزمان. ومن هنا تأتي حيوية اعتماد المنظور الحضاري - حول مستقبل هذا الصراع - وذلك حتى يتسنى لها بلورة الأبعاد والملامح البارزة، التي يفرزها تساؤل المسلم المعاصر عن مدى حقيقة الصلة العضوية بين الوجود اليهودي القديم - يهود العالمية - في فلسطين السليبة.

لذا كان من الحتمي تاريخيا، معرفة مدى انعكاسهما على الواقع الإسلامي المعاصر، إبان هذه الحقبة الحالية، وما يتلوها في الغد المنظور واللامنظور. وذلك لأن هذا الوجود قد أحدث ولا ريب شرخا عميقا في جسد الأمة الإسلامية. وسوف تبقى بصمات هذا الشرخ طالما بقيت إسرائيل الغاصبة، جاثمة على أرض فلسطين.

ومن هنا .. هل يمكن لنا - حقا - أن نطرح مثل هذه التساؤلات الحيوية: هل فعلا انتهى الصراع الوجودي الدائر بيننا وبينهم من أجل البقاء؟! وهل لن يحدث مرة أخرى احتكاك حربي بين طرفي الصراع مستقبلا؟ وهل يمكن أن يحل محل الاحتكاك الحربي الشرس، اتصال حضاري فعال، بين الصهاينة والمسلمين، وهم لازالوا يحتلون الأرض، والأقصى الجريح مازال قابعة تحت أسرهم، ويئن هل من صلاح الدين جديد ينقذني من براثن الصهيونية الغاصبة؟!.

في الواقع إن الإجابة الدقيقة عن كل هذه التساؤلات المصيرية المثارة الأن على الساحة الإسلامية، وغيرها من الأسئلة، هي بالنفي القاطع، وذلك لأن شيئا من هذا لن يحدث على الإطلاق لا اليوم ولا غدا. حيث إن إسرائيل لا ولن تتخلى أبدا عن الصبغة الأساسية لصراعها معنا - ولا عن أحلامها - ولعلنا نعرف أن السمة البارزة، لهذا الصراع هو أن هويته البحتة وفقا للمنظور الصهيوني، هي اليهودية الخالصة، بينما نحن أو إذا شئنا الدقة، بعضنا قد فرغوا الصراع من محتواه الإسلامي وبعده الحضاري. ولعل هذا ما يسقط الدعوى القائلة بضرورة عقد أواصر السلام مع هذا العدو.

ولهذا فإن هذا الصراع، لم ينته بعد، وذلك لأنه يعد من أخطر الهموم الوجودية والحضارية، التي تجابه الواقع الإسلامي الراهن، ناهيك عن المصير الإسلامي كله، وهذا بطبيعة الحال، لأنه يعد أطول

صراع شهده التاريخ بين الحضارات. ومن هنا فإنه لا يمكن لنا فهم أبعاده الدينامية المتفجرة، وكيفية مجابهته بسلاحه، وفقا للتصور الإسلامي البحت، إلا بعد فهم حقيقة الصراع الدائر بيننا كمسلمين وبين الصهاينة تاريخيا وحضاريا. وهذا لن يتم لنا كمسلمين نعيش في الهزيع الأخير من القرن العشرين، إلا بفهم العمق التاريخي، والأبعاد الحضارية لوجودهم المزعوم على أرض الواقع، وذلك من خلال الوعي بحقيقة وجودهم، بعد كشف زيفهم وتعريتهم، فضلا عن بلورة مدى تهافت إسهامهم الحضاري الهش، في مسيرة البشرية الجديدة، ولعل الوقت مناسب الأن، أكثر من أي وقت مضى لمعرفة ذلك كله حتي نكون على بينة بما يبيت لنا مستقبلا.

إزاء هذا يمكن لنا القول بأن ما بيننا وبين إسرائيل - كما يذهب إلى ذلك جمال حمدان - هو إذن "صراع بقاء" من أجل البقاء بالمعنى الخام، بمعنى أن نكون أو أن لا نكون حرفيا. فهو ليس نزاع حدود، بل هو صراع وجود، صراع بين الحق والحقد، لا بين حق وحق كما يزيف الصهيونيون، ومداره النهائي أن نبقى على هذه الأرض أو لا نبقي. إنها ليست أقدارا متصادمة كما تردد الصهيونية (كتاب كيمش مثلا)، بقدر ماهي أقطاب متنافرة كما يقول المفكر السياسي الكبير الاستاذ كامل زهيري في إحدى دراساته الرائدة عن القضية الفلسطينية. ذلك أن أحلام العدو القديمة وخططه المعلنة في إمبراطورية النيل - الفرات معناها بالضرورة تفريغ المنطقة من سكانها وأصحابها الشرعيين بالتدريج، أي هي الابادة في النهاية، وإن لم تبد كذلك في مراحلها الأولى المباشرة. ومن ثم فإن التعايش السلمي بين الطرفين مستحيل بالطبع، لأن هذه الأرض لا تتسع لهما

معا. ولأن التعايش السلمي بين اللص وصاحب البيت مستحيل، إلا أن يتحولا إلى قاتل و مقتول، فلكي يبقى أحدهما لابد للآخر أن يذهب.

وفي هذا ما لعله يحتم علينا أن نأخذ الحذر والحيطة، ونحن نتعامل مع هذا العدو الحضاري في المستقبل المنظور واللامنظور، ولاسيما على المستوى الحضاري والثقافي، وذلك حتى نستعد للمواجهة معه مستقبلا. وإذا نحن لم نستعد من الآن، وتعد للأمر عدته، فلن ينفع بعد ذلك الندم ولات حين مناص. ولذا فإن المنظور الحضاري يتوخى تعرية، فضلا عن كشف تلك الدعوى الباطلة والمتهافتة التي تحاول وبشتى الأساليب، إيجاد صلة عضوية ما بين يهود اليوم - الصهاينة - ويهود الأمس البعيد - يهود الكتب المقدسة - ونأمل أن يكون هذا المنظور في مستوى اللحظات التاريخية الحرجة التي نمر بها الآن.

ولا يخفى على أحد منا بأن العدو من جانبه على بينة تماما من مغزى هذا التناقض الوجودي، وهو يرتب عليه نواياه بكل وعي، بل ولم يتورع عن إعلانه بصورة ساخرة مثلما هي كاشفة. فأكثر من قائد من قادة إسرائيل - شيمون بيريز مثلا – الذي يصور على أنه بطل السلام - حدد الصراع الحتمي في بعض كتاباته بأنه "صراع بيولوجي" (كذا): أي أنه تصفية جسدية: إبادة جنس يعني Genocide! إن الصهيونية، كما يقول الكاتب العربي السوري الواعي صفوان قدسي، هي أعلى مراحل الاستعمار. كل أولئك، مع العلم بأن عدونا ليس جنسا أكثر مما هو قومية، مهما توهم أو ادعي في الحالين. فإن هو أنثروبولوجيا إلا أشتات وأخلاط من كل أجناس العالم تقريبا. أما قوميا فليس له من مقومات الأمة أو شبه الأمة أدني نصيب. إنما هو طائفية دينية بحت، تعيش بعقلية وقبلية وبدائية

العصور القديمة المتحجرة. وتتصرف بنفسية وأساليب العصور الوسطى الصليبية.

فأين إذا هم اليهود الأقحاح؟ وهل هؤلاء هم اليهود حقا؟.

وبناء عليه كان من الضرورة بمكان، بلورة أبعاد هذه الاشكالية بلورة منهجية ذات طابع علمي، تعتمد على التحليل التاريخي الواعد، وذلك حتى يتأكد لنا مدى شراسة الهموم الحضارية الطاحنة، التي تواجه أمتنا الإسلامية الخالدة وجودية ومصيريا. كما يجب علينا ألا ننساق وراء تلك الدعاوى الزائفة التي يروج لها الصهاينة - الأعداء الدينيون والحضاريون للأمة - من مثل ضرورة تحقيق الانفتاح الحضاري بيننا وبينهم، ولاسيما في المضمار الاقتصادي والثقافي. وفي الحقيقة إن هذا الانفتاح المشؤوم، إذا حدث فسوف يكون فيه مسخ لأبرز قسمات الوجود الحضاري للأمة، فضلا عن أنه سيوقعها في أتون الانصهار والضياع الماحق، أمام الآخر المتفوق علينا حضاريا، أي الغرب وذيله في المنطقة، إسرائيل الكبرى - من النيل إلى الفرات - كما يزعمون من المنظور الجغرافي - المكاني - وذلك لأن الصهاينة، لا ولن يتخلوا عن أحلامهم وتصورات توراتهم المحرفة. ناهيك عن المستوى والمنظور الحضاري، الذي يحاول تأكيد مدى هيمنة إسرائيل على المنطقة تكنولوجيا واقتصاديا، وفقا لمخططات مستقبلية مدروسة - الشرق الأوسط الجديد لشيمون بيريز مثلا - عبر إيجاد هذه المنظومة الاقليمية - بزعامة إسرائيل على أنقاض العالم العربي. إنه مسخ وتشويه لمعالم الجغرافيا الاقليمية من أجل تأكيد ريادة إسرائيل للمنطقة. ومن هنا كان لزاما علينا - ولاسيما في لحظتنا الراهنة - ونحن بصدد تقديم المنظور الحضاري المفعم بالأصالة الإيمانية، حول هذه الاشكالية المصيرية، أن نسجل انطباعا -

مأساويا - نراه جديرا بالملاحظة، ألا وهو أن المكتبة الإسلامية المعاصرة، في واقعها الراهن، لاتزال تفتقر إلى الأبحاث الجادة التي تتسم بالوعي الثقافي الإسلامي، والتحصين الحضاري، وذلك لكي تترجم وبصدق الروح الحركية المنشودة للمد الإسلامي النامي، في مواجهته للتحديات الشرسة التي قدر لها أن تواجه الأمة، ويأتي على قمتها التحدي الصهيوني من المنظور الديني والحضاري.

وحتى لا تنبهم أمامنا معالم الرؤية الإسلامية البحتة، لمستقبل صراعنا مع اليهود، وحتمية نهاية هذا الصراع لصالحنا كما أكد على مصداقية ذلك القران المجيد، فضلا عن مبشرات السنة النبوية الشريفة - على صاحبها أفضل صلاة وأزكى سلام - ولعل في هذا ما يجعلنا نؤكد وبما لا يدع مجالا للشك على أن زوال إسرائيل، هو حتمية قرآنية. والصهاينة يعرفون ذلك جيدا. لذا فإننا نرى بأن هنالك ضرورة إسلامية ملحة، تجعل من الأمثل أن توجه هذه الأبحاث الجادة، إلى استشراف المعالم الحقة لمستقبل هذا الصراع الدائر على أرض فلسطين، بدلا من الوقوع في براثن التصورات الشوهاء الصادرة عن الصهيونية وحلفائها في عالمنا المعاصر وهم كثر.

ولكي تؤتي هذه الأبحاث ثمارها المرجوة فإنه ينبغي أن تكون ذات فاعلية ديناميكية، ولن يتأتى لها هذا إلا من خلال تركيزها المكثف، على تحليل وتشريح الأبعاد الحيوية للعمق التاريخي للفكر اليهودي ومن ثم للحركة الصهيونية العالمية وجوديا وحضاريا، وذلك بعد اعتماد منظور نسقي يقوم أساسا على التشريح المنهجي والاستراتيجي المترع برؤية مؤمنة خالصة تجسد لنا جميع الأبعاد الحقيقة لهذه الظاهرة الاستعمارية - من المنظور التاريخي البحت - في محاولة موضوعية منا لتأصيل مدى زيف أحقية إسرائيل المعاصرة

- الإفراز النكر لزواج الاستعمار - القديم والجديد - بالصهيونية العالمية، التي تدعي أن لها حقوقا تاريخية في فلسطين - وذلك من منطلق ميراثها المزعوم لليهود القدامى. وبطبيعة الحال، إن الذي يقف وراءها، ويؤيدها وبكل فعالية، على جميع المستويات في هذا الادعاء الساخر، هو الولايات المتحدة الأمريكية.

ولعل هذا هو الذي دفع جمال حمدان إلى القول بأن: "ما بيننا وبين أمريكا بعد هذا، هو (أو كان) "صراع قوة تاريخي "، وما بين أمريكا وإسرائيل هو "لقاء مصالح تاريخي". فأمريكا، كقمة الرأسمالية وكوريثة الاستعمار القديم، وزعيمة الاستعمار الجديد والإمبريالية العالمية منذ الحرب الكونية الثانية - والآن كقطب أوحد بعد انهيار الاتحاد السوفيتي - كان حتما أن تتصادم الأمة الإسلامية في صراعها التاريخي من أجل التحرر والخروج من التبعية ومناطق النفوذ، ثم من أجل الوحدة والتنمية والتحول إلى التحضر، فليس من مصلحة الإمبريالية الأمريكية كقوة عظمى عالمية - وحيدة - أن تظهر في أي منطقة، وفي هذه المنطقة الحيوية بالأخص، قوة جديدة كبيرة. ومن الناحية الأخرى فقد كان التقاء الولايات مع إسرائيل أكثر من قدر محتوم، فهو لقاء مصالح تاريخي ينبع من وحدة النشأة، ووحدة الأيديولوجية، ووحدة العدو. فأما وحدة النشأة فإن إسرائيل إنما نشأت بالهجرة والاستيطان والاحلال واغتصاب وطن من أصحابه الشرعيين التاريخيين بالقوة وبدعاوى التفوق العنصري والحضاري... إلخ. تماما مثلما نشأت الولايات المتحدة من قبل كأمة من المهاجرين وانتزعت وطنا - قارة برمتها من سكانها الأصليين - بالإبادة والاحلال على أساس من تفوق القوة والحضارة والعرق... إلخ. فالنموذج واحد،

وإسرائيل ليست إلا تصغيرا للولايات المتحدة من حيث النشأة فضلا عن وحدة الجنس وتجانس الأصل الأوروبي.

ولقد ذهب جمال حمدان إلى أن أمر العلاقات التاريخية العضوية بين أمريكا وإسرائيل لم يقف عند هذا الحد من التلاحم والتماثل في النشأة والتطور - من منظور الجغرافيا السياسية - بله المصير، وإنما تعداه إلى ظاهرة أكثر خطورة ألا وهي و "بأوهام الرجل الأبيض، وبعقلية الهنود الحمر، فإن الولايات تنظر إلى إسرائيل في العالم العربي كما لو كانت أمريكا جديدة في قلب العالم القديم وقلب القرن العشرين – وما يليه من قرون - بينما تنظر إسرائيل بدورها إلى العرب كأنهم الهنود الحمر الجدد وبعقلية الاستيطان الأمريكي. ولقد قيل إن أمريكا في إسرائيل الكبرى بينما إن إسرائيل في أمريكا الصغرى، وهو تشبيه صحيح جدا في أكثر من معنى".

ومن هنا وهناك جميعا جاء ذلك التطابق التام والوحدة المطلقة، ورغم بعض الاختلافات الثانوية بل والخلافات السطحية، بين السياسة الأمريكية والإسرائيلية في استراتيجية السياسة العالمية. وهي وحدة عضوية حميمة كما هي محمومة، ولا انفصام لها - كما ثبت علميا - في ظل هذه الاستراتيجية ومالم تتغير هذه الاستراتيجية. وكل التعبيرات الشائعة عن إسرائيل من أنها "الولاية الحادية والخمسون"، أو "الولايات عبر البحار"، أو "أعظم رقعة أرض تمتلكها الولايات كسفارة لها في الخارج "، أو "أكبر فرقة ضاربة للجيش الأمريكي خارج الحدود"، أو "حاملة الطائرات الأمريكية غير القابلة للغرق". هي أكثر من مجرد مقولات مجازية براقة أو مبالغات لفظية مثيرة فإن إسرائيل باختصار، إن لم تكن امتدادا سياسيا للولايات المتحدة فإنها على الأقل امتداد سياسي ليهود الولايات المتحدة، هم الدولة الأم، وهي

مستعمرة ما وراء البحار. ومن الجهة الأخرى فإن أمريكا كانت تكاد تبدو أحيانا في سلوكها ومزاجها وسياستها صهيونية أكثر من إسرائيل، إن لم نقل إسرائيلية أكثر منها أمريكية، ولقد قيل بحق كبير إن هناك "إسرائيليين " واحدة في وسط الشرق الأوسط، وأخرى أكبر في شمال شرق الولايات المتحدة.

فهل بعد هذا يبقى أدنى شك "لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ". في أن الولايات المتحدة لا تريد حقا صالح العرب والمسلمين اليوم أو حتى غد؟. اللهم إنني قد بلغت.. اللهم فاشهد.

ولعل في هذا ما يدفعنا إلى تذكير الذين ينسون أو يتناسون التاريخ الحق، ويعتقدون واهمين بإمكانية قيام سلام حقيقي، فضلا عن التعايش بين المسلمين وإسرائيل - رغم اختلاف الدائرة الحضارية التي ينتمي لها كل منهما - في قادم الأيام الآتية من ضمير الغيب. وفي هذا السياق نقول لهؤلاء، ومن سار على شاكلتهم: إن الصهيونية العالمية، قد عملت جاهدة على تحقيق حلمها المزعوم في قيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين بعد أن وقف نابليون بونابرت هنالك على أرض عكا في العام الميلادي ١٧٩٨م، وقال مقولته المشهورة: "هنا ينبغي أن تقوم دولة قومية لليهود ". وتجسدت هذه المقولة حقيقة واقعة من بعد في المؤتمر الصهيوني الأول، الذي عقد بمدينة بازل السويسرية في ٢٨ أغسطس ١٨٩٧م، بزعامة هرتزل، المؤسس الأول لحركة الصهيونية العالمية، والذي رحل عن الدنيا عام ١٩٠٤م.

وعند هذا المدى من السياق المنطقي نصل إلى نقطة غاية في الأهمية والدلالة. لقد بدأت مأساة فلسطين وقضية المشرق العربي أو الشرق الأوسط في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، أي منذ مؤتمر بازل وقبله. وهي أساسا مشكلة دولية أو مدولة إلى حد أقصى. في

تلك المرحلة كان البعد الدولي يفوق البعد المحلي أضعاف. وكان هذا هو سبب وأساس نجاح العدو في الاستقرار على أرضنا العربية السليبة. وبالتدريج، ومع وعي العرب والمسلمين المتزايد ويقظتهم ثم مقاومتهم ونهضتهم، أخذت الدول الغربية الكبرى تستبعد واحدة بعد واحدة من التدخل لحساب إسرائيل، وأخذ البعد المحلي في الصراع يزداد أهمية ونسبة، بحيث بدأ يعادل البعد الدولي أو يفوقه ويتفوق عليه كضابط المصير الصراع.

وهكذا نرى أن الصهيونية العالمية، قد ساعدت ومنذ ذلك اليوم، على قيام دولة إسرائيل المعاصرة وجعلها كيانا سياسيا، وفعلا تاريخيا قابلا للتطبيق على الأرض الخالدة، التي حملت - ولاتزال - البصمات الحية للوجود الإسلامي إيمانيا وحضاريا، منذ فجر التاريخ المشرق، في ليل البشرية البهيم، وحتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وبالفعل قامت دولة إسرائيل في ١٥ مايو ١٩٤٨. ومن يومها - والاستعمار - والصهيونية تغذيها وتعطي لها كل المقومات الناشطة المساعدة لها، على الوجود الحيوي، ولا سيما إذا كان هذا الوجود على أرض مترعة باللمسات الحية للحضارة الإسلامية (فلسطين الدرة الثمينة وواسطة العقد). وبهذا تكون الصهيونية قد حولت أساطيرها الميتة، إلى حقائق ملموسة قابلة للوجود إلى حين. ومن ثم أصبح حالنا، أو إذا شئنا الدقة حال من أنكر أو تنكر للهوية الدينية - الإسلامية - لهذا الصراع الشرس كحال من يحول حقائقه الناصعة، نصاعة الشمس في رابعة النهار، إلى أساطير شوهاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

ولذا ينبغي أن يكون هذا المنظور واعيا تماما بإرهاصات مستقبل هذا الصراع الديني ذي الأبعاد الحضارية، المرتكزة على حقائق التاريخ الموضوعية. فضلا كونها مفعمة بالوعي الحضاري الناضج. وذلك لكي تؤكد وبما لا يدع مجالا للشك على أن إسرائيل المعاصرة دولة لا تملك أصالة التاريخ ولا مقومات الوجود الذاتي - لا الآن ولا في المستقبل المنظور واللامنظور وذلك لأن الصهيونية - على حد تعبير جمال حمدان - هي مجرد "غزوة "، كما أن إسرائيل هي مجرد "تجربة" مهما طالت وأزمت، ومهما كانت دموية متصلبة. فيوما ما سوف تفشل وتنتهي، فالوجود الصهيوني الدخيل على الأرض العربية الإسلامية قلب صناعي مزدوج، لا يمكن للكائن العضوي الصحي أن يقبله وسيلفظه الجسم الحي يوما ما، ككل استعمار استيطاني في العالم. غير أن واجبنا نحن أن نحاصره ونشدد النكير عليه حتى نعجل بعملية اللفظ الحتمية. والمطلوب منا أن نحيل إسرائيل إلى بيئة طرد بشري، بلا جاذبية وبلا مرفهات، بل صعوبات حياة مطردة وخفض مستمر في مستوى المعيشة. ضروري، أن نجعل الحياة فيها كريهة، وينبغي ألا نتركها قط تشعر بالراحة أو الأمان أو الاسترخاء والرخاء. ولهذا فإنه من الخطأ أن نترك إسرائيل في سلام لمدد طويلة. وهذا لا يكون إلا بحروب متقاربة، الفواصل الزمنية بينها أقصر وأقصر، حتى لا تسمح لها بفرص التقاط الأنفاس، وحتى تبلغ حد الارهاق المزمن - فالسقوط الأخير.

وحتى تكتسب رؤية جمال حمدان حول مستقبل هذا الصراع نوعا من الموضوعية، التي تضفي عليها الفاعلية، عبر انعكاس مردودها الحيوي، على واقعنا الإسلامي المعاصر، فضلا عن مستقبلنا المنظور واللامنظور على ظهر هذا الكوكب الأرضي. رأيناه يبلور وبموضوعية

علمية مجردة تلك الحقيقة الجوهرية، التي مفادها أن هنالك فرقا أساسيا بين اليهودية الحقة - يهودية الكتاب السماوي "التوراة" قبل تحريفها وطمس معالم الحق البواح فيها والصهيونية البشعة.

وفي هذا السياق يرى جمال حمدان بأن أول مرة نسمع فيها عن اليهود في التاريخ، إنما كانت مع سيدنا إبراهيم عليه السلام - الذي ظهر مع قومه في القرن الثامن عشر قبل الميلاد - كجماعة من الرعاة الرجل على المشارف والتخوم الاستبسية لجنوب العراق الذي كان يؤلف دولة الكلدانيين في أور. ومن قبل كان إبراهيم وقومه قد خرجوا من قلب شبه الجزيرة العربية التي نشؤوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة التي تأصلت في ذلك "الخزان البشري" الشهير الذي لم يتوقف عن أن يقذف - كإقليم طرد وكصحراء فقيرة ولكنها "ولود" - يقذف بالموجة تلو الموجة البشرية إلى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة. ففي حوالي ١٨٠٠ ق .م .. هاجر إبراهيم - عليه السلام - وقومه، في دورة عكس عقارب الساعة، شمالا بغرب ثم جنوبا على طول حواف الهلال الخصيب حتى وصلوا إلى حوران ثم إلى فلسطين. وهناك سيولد له إسحاق، ولإسحق سيولد يعقوب، ومن أبناء يعقوب الاثني عشر ستتأصل الاسباط أو القبائل الاثنتا عشرة الشهيرة في التاريخ والتوراة، ولكن هجرة إبراهيم إلى فلسطين وإن كانت أولى هجرات القبائل اليهودية فإنها لم تكن الأخيرة. ذلك أنهم لم يأتوا مرة واحدة كجسم موحد، وإنما على عدة دفعات جاؤوا ومن عدة طرق وتحت عدة قيادات. والهجرة الثانية مثلا كانت في القرن ١٤ ق.م.

ومنذ ذلكم التاريخ السحيق وهم يحاولون - وبدأب - رسم ملامح شخصيتهم الغامضة والمبهمة المعالم. وقد تعرض اليهود، عبر

رحلتهم القاسية في التاريخ لتحديات شرسة ومصيرية، حتى أبيدوا تمام الإبادة. ومن ثم أصبحوا مجرد ذكرى من ذكريات التاريخ البائدة. وكان عندما دمر الرومان الهيكل في عام ٧٠م. ومن يومها انبثق في التاريخ اليهودي ما عرف بعصر الشتات. وكانت تلكم اللحظات التاريخية الحاسمة والمصيرية بمثابة مفترق الطريق في مسيرتهم الحياتية، وصراعهم القاسي من أجل البقاء.

وبناء عليه، وفي ضوء وقائع التاريخ، وأدلته المادية نستطيع أن نؤكد على أن اليهود الأقحاح قد ذابوا في غيرهم من الشعوب المختلفة، ومن ثم لم يعد لهم وجود على خارطة العالم من منظور الجغرافيا البشرية. وهكذا لم يعد ليهود الكتب المقدسة، أي وجود فعلي على ظهر هذا الكوكب الأرضي لا بشريا ولا حضاريا. وبذلك يكون كيانهم - إسرائيل المعاصرة – ما هو إلا مسخ ونبت استعماري بحت، لكي يدعم حركة المراع الحضاري الدائر ما بين الشرق والغرب. ولذا نستطيع القول إن إسرائيل الحالية، ماهي إلا البنت البكر لأوروبا الاستعمارية، التي وضعتها في قلب العالم الإسلامي المعاصر، بعدما لاح لها في الأفق قرب مجيء اللحظة التاريخية الرحيل قواتها السياسية، عن المنطقة في أعقاب الحرب الكونية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥م).

ولقد كان ذلك بهدف أن تكون بمثابة الشركة، التي زرعت لكي تقسم العالم العربي إلى جناحين شرقي وغربي، حتى يسهم ذلك التقسيم القسري في شل مدة الزاحف نحو موكب الحضارة الصاعدة، دوما نحو الارتقاء الشامل، ثم تلا ذلك معوقات أخرى لاتزال توضع في طريق المسلمين ولعل من أبرزها الغزو الحضاري والثقافي . وفيما عدا هذا فلا سبيل إلى الشك في أن الخطر الصهيوني الذي يواجه

المسلمين - اليوم وغدا - هو تحد مصيري وخطر حقيقي وليس وهما من صنع مبالغة وتهويل المنذرين أو المحذرين أو المنظرين العرب. فما كان بالأمس أحلام العدو كان يصبح غدا حقائق صادمة بل صاعقة. فحين أعلن هرتزل بعد مؤتمر بازل منذ ١٠٠ عام أن "الدولة اليهودية قد ولدت "، كان من الممكن أن يبدو قوله وهما من شطحات الخيال، إلا أنه تحقق بعد ٥٠ عاما. وفي وجه هذا الخطر المريد، كان من الغفلة وحدها أن يظن أحد أن الزمن قد يكون خير علاج أو أن العدو قد يتمزق من الداخل بالاحتراق الداخلي. صحيح أن الكيان المغتصب غير شرعي وغير قانوني، والمجتمع المحشود داخله مجتمع خلاسي متنافر كقوس قزح أو كطيف الضوء، يغلي بانتظام بالتناقضات والصراعات الداخلية. ولكن التناقض الأكبر مع العدو - معنا - يجبها، ويؤجلها، ويخدرها، وهي على أية حال لن تفجره من الداخل يوما. أما أن الكيان برمته يفتقر إلى الشرعية الدولية، فيكفي أن نقول: كل حق فقد بدأ قوة، وكل قوة مضروبة في البعد الزمني ستتحول إلى حق.

وهكذا تقودنا رؤية جمال حمدان لمستقبل الصراع العربي الصهيوني، الذي لم ينته بعد إلى أن التاريخ - وليس الحلول المسكنة - هو وحده الذي يملك كلمة الفصل النهائية بشأن هذا الصراع المستقبلي والمصيري. وذلك لأن محكمة التاريخ لا تعرف الكذب، ومن ثم فإن شاهد التاريخ هو خير شاهد. فعنده أن هذا يعني أيضا، وهو ما يسلم به الجميع، أن الصراع سوف يكون طويلا بقدر ما هو مرير. إنه صراع أجيال، ولقد نؤرخ لبدايته بالفعل منذ مؤتمر بازل أي منذ قرن من الزمان، بينما إن وجود إسرائيل على التراب الفلسطيني قد شارف على نصف القرن عمرة. لكن الذي نود أن نصر عليه هنا هو أن الصراع سيكون أقصر مما يقدر البعض، أقصر على أية حال من

الحروب الصليبية التي تطاولت على مدى قرنين متكاملين. ذلك أن إيقاع العصر قد اختلف تماما وتسارع جدا. وحروب اليوم أقصر للغاية من حروب الماضي لأن الأسلحة أفتك وأمضى بلا حدود، كما أن العالم لن يصبر طويلا على حروب ممدودة ممطوطة لا تبدو لها نهاية. وإذا ارتفع العرب حقا إلى مستوى التحدي بنجاح على غرار (العاشر من رمضان)، فقد لا تأتي على إسرائيل - نقول هذا بهدوء مرة أخرى - سنة ٢٠٠٠ - هكذا تنبأ الراحل الكريم الدكتور جمال حمدان عبقري الجغرافيا والتاريخ - أو زد عليها عقدين أو ثلاثة ربما. ومن الناحية الأخرى، فإن التصور العام - والصحيح - الصراع على أنه سوف يستمر أجيالا يعطي تصورا غامضا - ولكنه خاطئ بقدر ما هو خطر - بأن هناك على طريق المستقبل عشرات الجولات القادمة والمعارك العسكرية قبل أن يحسم الصراع نهائيا، ولكننا بكل قناعة نفشل في أن نرى بعد المعركة التي قد تكمل العاشر من رمضان احتمالا لا أكثر من جولتين أو ثلاث جولات في غضون الخمسين سنة القادمة، إلا أن تكون موجات من الحرب الشعبية وحروب العصابات غير النظامية.

ولقد رحل جمال حمدان عن دنيانا، ومر ربع قرن على حرب رمضان، ولم يحدث أي مواجهة عسكرية، ولكن هذا لا يعني أن الحرب مع اليهود قد انتهت .. فهي قادمة يوما ما لامحالة.

واستكمالا لرؤية جمال حمدان هذه، فإنه لابد لنا من اعتماد الرؤية الإسلامية لمستقبل هذا الصراع، وذلك لأنها هي في الأساس عند تحليل أبعاده سواء في محتواه الزماني أم المكاني، وذلك بعد التفاعل العضوي الحي بينهما في منظومة حضارية واقعية وفقا للمنظور الحضاري والواقعي لهذا الصراع الدائر بين الشرق والغرب. والواقع المعني هنا، هو أن الصهاينة، وهم في سبيل تأكيد ذاتهم الممسوخة

يحاولون محاولات جادة، من أجل إيجاد تراث حضاري يهودي مزعوم، بغرض استلهام معطياته، وذلك حتى يدعم وجودهم الهش على أرض فلسطين المسلمة. ولكن الحضارة اليهودية المزعومة، لا ظل لها من الواقع وهي في الحقيقة، كما تؤكد ذلك شهادة التاريخ حضارة زائفة وهامشية، فضلا عن كونها منتحلة من حضارات الأغيار - وفقا للمصطلح اليهودي - وقد أثبت علم الآثار، بأدلته المادية التي لا تقبل الشك، مصداقية تلكم الحقيقة التاريخية.

إزاء هذا ينبغي أن يكون الواقع الإسلامي المنشود، في مواجهته لهذا العدو الشرس واقعا إيمانيا. وكذلك ينبغي أن يكون عكس الواقع - الانهزامي - الذي يريده منا المتخاذلون.

وعلى كل الأحوال فإن هذا الصراع مثلث الأبعاد، سياسي وعسكري وحضاري. وكلما تقادم العهد به سيكتسب البعد الأخر (الحضاري) أهمية أكبر وأفعل إلى أن يصبح هو العامل المرجح أو الفيصل. هذا على حين يبدو العدو الأول السياسي أهم دورا في المراحل الأولى، كما كانت الحال مثلا قبل حرب العاشر من رمضان، ولكن في الحالين سيظل البعد الثاني (العسكري) هو القوة الضاربة المباشرة، ومن ثم عامل التصفية الفاصل كما أثبتت بجلاء معركة رمضان الماجدة. غير أن الأبعاد الثلاثة تتداخل إلى أقصى حد وتترابط ترابطا لا انفصام له. فالبعد العسكري للصراع رهن في دوره ونتيجته بالعاملين الآخرين. والواقع أن الحرب إذا كانت - كما يقال منذ وضعها كلاوسفيتز - امتدادا بطريقة أخرى للسياسة، فإنها أيضا امتداد بطريقة أخرى كذلك للحضارة. والفرق أن الحرب (أي التفوق العسكري) هي عادة التي تحدد مصير السياسة هزيمة أو نصرا، بينما أن الحضارة (أي التفوق الحضاري) هي التي تحدد مصير الحرب هزيمة أو نصرا.

الحرب، بعبارة أخرى، امتداد لاحق للحضارة، وسابق أو لاحق للسياسة.

إن حركة التاريخ لا ترحم، وهي عندما تصعد صراعا بين أمتين إلى المستوى الحضاري، فإن نتيجة واحدة يمكن أن تنجم عن هذا الصراع، لابديل لها وهي أن إحدى الحضارتين ستنتصر والأخرى ستنهار وتموت.

ومن هذا المنطلق نؤكد على أن الصراع بيننا وبينهم هو صراع من أجل الوجود، وليس صراعا من أجل الحدود فقط. الحقيقة هذا الصراع وفقا للمنظور المستقبلي، من خلال ما أشار إليه مناحم بيجن - الصهيوني المخضرم - عندما قال:

"إن الصراع بيننا - أي الصهاينة - وبينهم أي - المسلمين - لن ينتهي إلا عندما ندمر مايسمونه بالحضارة الإسلامية"

ويوضح لنا جمال حمدان ذلك بقوله: "إن الصهيونيين الحقيقيين يؤمنون أساسا بأن الصهيونية غير قابلة بطبيعتها للتعايش مع أحد، في هذه الحالة مع العرب، وأنه ليس ثمة شيء (كنصف صهيونية). ومن الواضح كذلك أن طريق السلام الحقيقي يتطلب من إسرائيل مفهوما جديدا تماما للأمن، مفهوما يستدعي تغييرا كاملا لا في الجلد ولكن في الدم وحتى النخاع، فضلا عن عملية غسيل مخ شاملة، أي باختصار عملية تحول كامل Metamorphosis في الكائن العضوي واعادة تكيف جذري مع البيئة المحيطة. والأوضح منه أن السواد الأعظم من الإسرائيليين – كما تبرهن الأحداث الجارية واستطلاعات الرأي - أبعد ما يكونون عن مثل هذا المفهوم وهذا التغيير. فهم يقولون - كما نقول نحن أيضا - إن الصراع العربي - الصهيوني ليس

مشكلة حدود، بل وجود، وفلسطين لا يمكن أن تكون مسلمة وإسرائيلية في وقت واحد، ولا إسرائيل لهم من غير قدس، كما لا فلسطين لنا من غير قدس. إن التناقض جذري وكلى، والتكيف المتبادل مستحيل ان العدو الذي سار دائما ضد التاريخ ينكر الآن تغير التاريخ، والذي عاش دائما على فرض الأمر الواقع يرفض الآن أن يعترف بتغير الواقع. أم نقول مع المثل الانجليزي "إن النمر لا يغير جلده".

فهل بعد هذا يساورنا الشك في الطبيعة العدوانية الشرسة لهؤلاء، وأنهم لن يتخلوا عن أحلامهم أو أطماعهم التوسعية، فضلا عن فلسفتهم التدميرية الماحقة في الوجود، وعدائهم الباغي والمتجذر في أعماق التاريخ السحيق للحضارة الإسلامية، ومن قبل للإسلام كدين وحضارة: (هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون) (المنافقون أية ٤٠). ولعل هذا يقتضي منا معرفة أعماق وأبعاد الوجود اليهودي منذ ظهوره وانبثاقه من رحم التاريخ لأول مرة، وحتى لحظتنا الراهنة، وذلك لأن تصور إسرائيل المعاصرة يقوم أساسا على أن الوجود اليهودي المعاصر (الصهيوني)، ما هو إلا امتداد عضوي وطبيعي للوجود اليهودي القديم، رغم الفاصل الزماني والمكاني، فضلا عن الحضاري بين يهود الأمس البعيد ويهود اليوم الراهن. ولذا فإن هذا التصور زائف من المنظور التاريخي البحت.

ولا ننسى ونحن نؤطر لمستقبل صراعنا مع اليهود، أن نشير إلى تلك الحقيقة التاريخية، ألا وهي إن وجود إسرائيل في قلب عالمنا الإسلامي يمثل تركيزا خطيرا لتحدي الحضارة الغربية (الأوروبية - الأمريكية) لنا، مضافا إليها كل ما يملكه اليهود من قيم ومعتقدات وقدرات ماكيافيلليه في عالم الصراع، لذا فهو تحد مركب صليبي - يهودي يسعى لتوجيه الضربة القاصمة للأمة التي طالما انتصرت على

هجمات الصليبيين واليهود، وطالما خرجت عبر تحدياتهم وهي أصلب عودا وأقدر على الاستمرار والتطور.. ومن هنا نجد أن هذا التجاوب العميق بين جماهير الغرب وبين تطلعات اليهود وأهدافهم.. هذا التجاوب الذي يسود القواعد البشرية وجد تعبيره على مستوى القيادات بالإعلان الذي أصدرته البابوية في الستينات بتبرئة اليهود من دم المسيح عليه السلام، الذي شبه لهم فيه، وبالمنشور الذي أعقب ذلك معلنا حق يهود في أرض الميعاد!!.

وأخيرا وليس آخرا، يمكننا أن نؤكد وبما لا يدع مجالا للشك كما أكد جمال حمدان على أن صراعنا الحضاري مع إسرائيل هو في حقيقته صراع مع حضارة الغرب التي استعادتها ولاتزال تعيش متطفلة عليها. وما كان يسميه البعض تفوق العدو التكنولوجي لم يكن إلا تفوق الغرب التكنلوجي منحولا مستعارا. بل إن ذلك التفوق التكنولوجي المقول ليس إلا تفوقا تسليحيا في جوهره وحقيقته. بل، في معنى، ليس ثمة شيء اسمه التفوق التكنولوجي، ثمة في الحقيقة تفوق تسليحي فقط. والصراع حضاري بمعناه العريض جدا والفلسفي البعيد أساسا، كما أنه ليس صراعا تكنولوجيا إلا بالمعنى غير المباشر، أما في معناه وشكله المباشر فهو صراع تسليح. وقد عبر رابين عن هذا بصورة سافرة كما هي فجة بقوله: "في استطاعة إسرائيل أن تدافع عن نفسها بنفسها ضد قوى العالم العربي مجتمعة لأي فترة ممكنة - خمسا وعشرين أو خميس سنة – ما دمنا لا نحرم من المعدات اللازمة لدفاعنا". ولهذا فإن معركتنا الحضارية تعني في النهاية، وينبغي أن تعني، معركة تسليحية. إن معركة انتاج السلاح هي التي ستحسم الصراع في نهاية المطاف. ولكن معركة إنتاج السلاح في معركة سياسية من ناحية ومعركة حضارية من الناحية

الأخرى. إن المعركة الحضارية هي قاعدة الصراع ومنطلقة، والمعركة السياسية إطاره ومناخه، أما المعركة العسكرية فهي اليد الضاربة العليا والطولي.

وهكذا يبدو أن صراعنا مع إسرائيل قد حشدت له من جهة العدو كل قوى التعارض وطاقات الصراع التاريخي الطويل بين الإسلام وأعدائه.. ومن ثم - كذلك - كان علينا أن نمد مقاومتنا للعدوان إلى كل مساحاته الحقيقية، وأن نعمل على مستوى التاريخ والحضارة، وليس على مستوى الحرب السياسية والاقتصادية والاعلام فحسب ... وأول ما يفرضه موقف صحيح شامل كهذا هو ألا ندع للصهاينة فرصة التسلل إلى مواقعنا الحضارية: دينا وثقافة واجتماعا وأخلاقا وسلوكا وتميزا روحيا... بعد أن سمحنا لهم بالتسلل إلى مواقعنا السياسية والعسكرية والاستراتيجية، لأن تسللهم التالي سيكون أخطر بكثير، وسيعطي لانتصارهم السياسي والعسكري بعده الحقيقي الحاسم، لأنهم سوف يعتمدون هذا العنصر لضربنا في الصميم، وافقادنا قيمنا وتراثنا وحضارتنا، وتفكيك علاقتنا وأواصرنا، وتمييع أخلاقنا وسلوكنا، وسحق إيماننا وصمودنا.. ضربات متلاحقة في الصميم.. ستنتهي بأن نغدو كأمة متميزة خبرا من الأخبار، وسنضيع في غمار التحدي الحضاري بكافة أجنحته والذي تمثله إسرائيل مضيفة إليه كل طاقات اليهود وميزاتهم التاريخية ورغباتهم العاتية في سحق وتدمير كل من يقف في طريقهم بأي أسلوب .. ولن تجيء هذه الضربة المميتة ما دمنا قد سددنا على إسرائيل منافذ التسلل إلى مقاتلنا، وحصرنا نشاطها المعادي وحركتها التاريخية المضادة في نطاق استراتيجية السياسة والحرب .. ولكننا سنمنحها هذه الفرصة يوم أن نسمح لأنفسنا وقيادتنا بأن تعترف بها وتسالمها، وتفتح أمامها الدرب العريض

للوصول إلى أهدافها الحقيقة الحاسمة.. حيث لا مناص!!. كما هو حادث الآن على أكثر من مسار من مسارات ما يسمى بالعملية السلمية، ناهيك عن التعاون الاقليمي ... في أكثر من مجال، وعلى الرغم من أن هذه الرؤية الإيمانية التي تقدم التأصيل الديني والديناميكي لمستقبل هذا الصراع الحضاري الرهيب بين المسلمين وبني إسرائيل المعاصرين قد نشرت مع البدايات الأولى لانبلاج القرن الخامس عشر الهجري من رحم الزمن، تتفق تمام الاتفاق مع رؤية جمال حمدان التي نشرت قبلها، وكلتا الرؤيتين تنطبقان أيضا على لحظتنا التاريخية الراهنة، وما يتلوها من لحظات لازالت في ضمير الغيب.

وعلى الرغم من ذلك يبدو أن البعض منا، مصمم بالفعل على منح إسرائيل هذه الفرصة الذهبية التي ظلت حقبة طويلة، تراود أحلام قادة وساسة يهود. إن لم يكن قد منحها إياها بالفعل.

ولقد بلور جمال حمدان خلاصة رؤيته لمستقبل هذا الصراع بقوله: "إذا كانت تلك هي طبيعة التحدي الذي فرض علينا، فإنه بعد ليس شر مطلق، كما يبدو لأول وهلة. فالتحديات الكبيرة هي التي تصنع الأمم الكبيرة، وما من أمة كبيرة وصلت إلى الصدارة والسيادة ودخلت دائرة القوة إلا من خلال الحرب وعبر الدم. ولعلها حكمة بالغة من القدر أن يدخر الخطر الصهيوني لهذه الأمة التي تدهورت طويلا وكثيرا. لقد فقد العرب بعد يونيو، كما رأينا الكثير من هيبتهم ومكانتهم ووزنهم العالمي ورصيدهم الدولي، دعك من الخسائر المادية والآلام النفسية الرهيبة. ولكن الاستجابة الناجحة للتحدي في العاشر من رمضان أثبتت أنها جديرة بأن تكون " الرافعة العظمى لهم في الميزان الدولي، تنقلهم من جديد إلى قلب الدنيا وتضعهم في بؤرة العصر.

ولسوف يكون النصر خير دواء شاف لكل أمراضنا القديمة والحديثة، الداخلية والخارجية، والعبرة دائما بالخواتيم. إن لقاء الصهيونية هو كلقاء الصليبية معكوسة. فلقد بدأت أوروبا نهضتها بعد درس الصليبيات الحضاري وتحدية الخطير. بالمثل يمكن أن يبدأ العرب نهضتهم الكبرى – عصر النهضة العربية - بعد درس الصهيونيات وتحديه المصيري. ولقد يكون صراعنا المرير مع الخطر الإسرائيلي هو آلام المخاض لميلاد دولة كبرى في الوطن العربي الكبير تلحق بعمالقة العصر وحضارته.

ولذا فإننا نؤكد مرة أخرى وبشدة على أن ملامح المستقبل المنظور واللامنظور لهذا الصراع الدامي، كما رآها جمال حمدان إنما تشي لنا بأن كلمة الفصل النهائية بشأنه لم تقل بعد. وذلك لأن المعركة الحاسمة والفاصلة - بيننا وبين اليهود - قادمة لامحالة - لأنه ليس في مقدور أحد ما - كائنا من يكون - أن يسدل الستار على مسرحية هذا الصراع. وذلك لأن الذي بيده وحده - إسدالها، على الحقيقة، هو الله الخالق القهار فوق عباده ولله المثل الأعلى - وسوف تكون النهاية الحتمية لهذا الصراع عندما نسترد فلسطين السليبة والأقصى المبارك وذلك بعدما نحارب ونقاتل يهود، ومن ثم نقضي عليهم قضاء مبرما وساعتها، لن يكون ثمة يهود على وجه الأرض، كما بشرتنا بذلك السنة النبوية الخالدة عبر مبشراتها الصادقة صدق الفجر الأبلج، ألم يقل الحق وهو أصدق القائلين : (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (يوسف، أية ٢١).

المراجع

١- السيد عبد العاطى السيد: الإيكولوجيا الاجتماعية - مدخل لدراسة الإنسان والبيئة والمجتمع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٠.

٢- جمال حمدان، الجماهيرية الليبية : دراسة في الجغرافيا السياسية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦.

٣- ـــــــــــ، استراتيجية الاستعمار والتحرير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤.

٤- ـــــــــــ : شخصية مصر - دراسة في عبقرية المكان ، ج٤ ، دار الهلال، مطابع مؤسسة دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٤.

٥- ـــــــــــ : شخصية مصر - دراسة في عبقرية المكان ، ج٢، دار الهلال، مطابع مؤسسة دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٤.

٦- ـــــــــــ : شخصية مصر - دراسة في عبقرية المكان ، ج ١ ، دار الهلال ، مطابع مؤسسة دار الهلال، القاهرة ، ١٩٩٤.

٧- سمير عبد الحميد قطب، التربية واعادة البناء الايكولوجي للإنسان المصري، المؤسسة العربية للاستشارات العلمية والتنمية، القاهرة، ٢٠٠١.

٨- عمر الفاروق : ثلاثية حمدان ، كتاب الهلال ، العدد (٥٣٣) ، مؤسسة دار الهلال ، مايو ١٩٩٠.

٩- محمد مؤنس احمد، الحروب الصليبية كحركة استعمارية، مجلة بحوث الشرق الاوسط، جامعة عين شمس، ٢٠١٠

١٠- محمود أمين العالم: شخصية مصر لجمال حمدان - منهج الكتاب ودلالته، مجلة إبداع ، عدد (٩)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سبتمبر ١٩٩٣.

١١- مصطفى محمد طه، مستقبل الصراع العربي الصهيوني، مجلة شئون اجتماعية، الامارات، ٢٠٠٠.

الفكر الجيوبوليتيكي

عند جمال حمدان